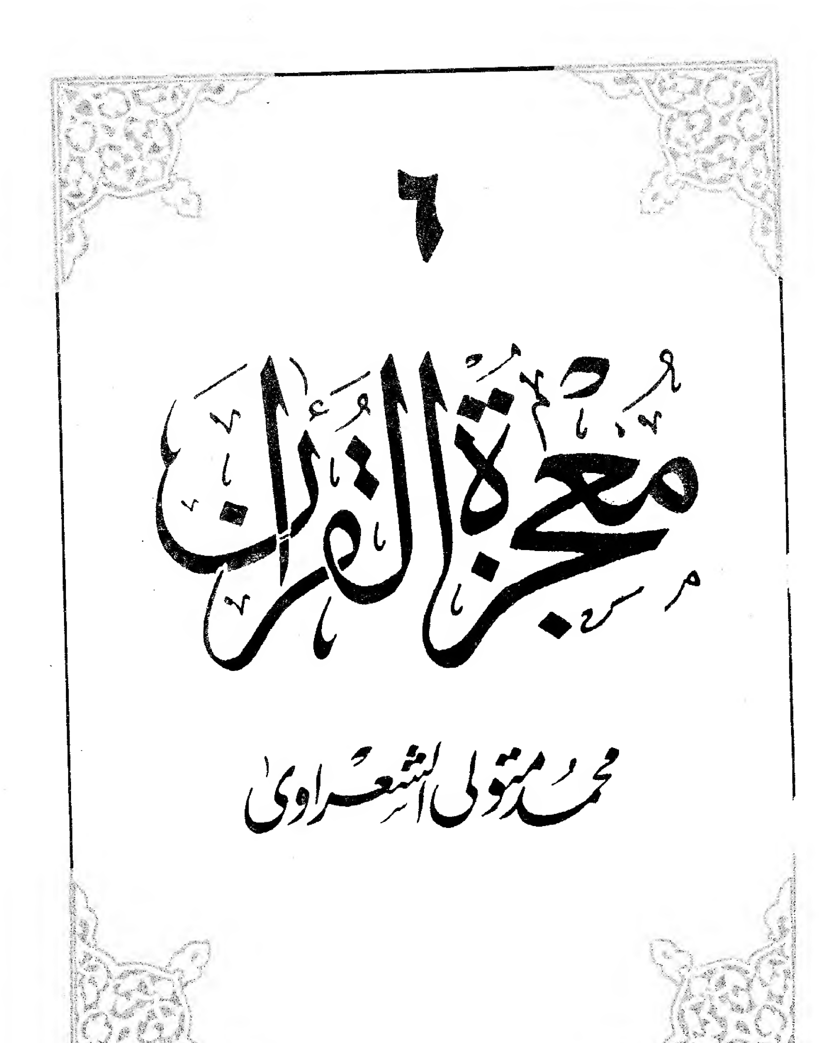

٦
معجزة القرآن
محمد متولي الشعراوي

أخبار اليوم

إدارة الكتب والمكتبات

الفصل الأول

الأمثال في القرآن الكريم

الأمثال فى القرآن الكريم

لماذا ضرب الله الأمثال ؟

الله سبحانه وتعالى ضرب للناس أمثالا فى القرآن الكريم وقال :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾

(سورة الزمر ٢٧)

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا ﴾

(سورة البقرة ٢٦)

وقال جل جلاله :

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة إبراهيم ٢٥)

الله سبحانه وتعالى حين ضرب الأمثال ربطها بموكب الإيمان . وربطها بالهدى والضلال . . فكأنما كل هذه الأمثال إنما ترتبط بقضايا إيمانية أراد الله سبحانه وتعالى أن يضعها أمام المؤمن ليزداد إيمانا . . وأراد الله أن يرد بها على الكافرين .

قبل أن نبدأ لنتحدث عن لماذا ضرب الله الأمثال فى القرآن الكريم . . فإننا لابد أن نفرق بين المثل والمثال .

أولا هناك كلمة مِثْل . . وهناك كلمة مثال . . ومِثْل (بكسر الميم) تعنى التشبيه بشيء . . أى أن هذا الشيء الذى نتحدث عنه يشبه كذا تماما . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ (من الآية ٢٣ سورة البقرة) أو ﴿ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ (من الآية ٣٨ سورة يونس)

ومعنى ذلك بسورة كالقرآن تماما .. أى أن هناك تشبيه حالة بحالة .

ونحن إذا أردنا فى الدنيا أن نستعمل كلمة مِثْل .. نقول هذا الشىء مِثْل الكرة .. لأنه مستدير كهيئة الكرة تماما .. أو أن نقول هذا الشىء يشبه سنام الجمل .. أى أنه على هيئة سنام الجمل تماما .. وهنا نحن نشبه حالة بحالة .. أو مفردا بمفرد .

أما المَثَل (بفتح الميم) فهو يختلف عن ذلك تماما .. ذلك لأنها لا تشبه شيئا فرديا بشىء فردى .. ولا تشبه حالة بحالة مثلها .. ولكن المثال يأتى لتقريب فكرة ما إلى الذهن البشرى ، بحيث يستطيع أن يَسْتوعبها .. ولا يشترط أن يكون المثال من نفس نوع الشىء الذى نتحدث عنه .. بل قد يكون مختلفا تماما ، ولكنه فقط يعطينا الفكرة .

ولنوضح هذه النقطة قليلا ..

إذا أخذنا الأمثال فى حياتنا .. وجدنا أنها تقرب المعانى .. فمثلا حينها تواجه إنسانا يتحداك أو يحاول أن ينال منك مغترا بقوته .. مزهوا بقدرته .. تقول له إنْ كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا .. ولا يوجد ريح هنا ولا إعصار ، حتى تضرب مثل هذا المثل .. ولكنك تريد أن تقول إذا كنت قويا فأنا أقوى منك .. استخدمت فى هذا كلاما يعطى المعنى دون أن تتقيد بالأشخاص ، ولا بالحالة نفسها .. ولا تتقيد بأن يكون ما قلته مِثْل (بكسر الميم) ما هو حادث فعلا .. فليس هناك ريح .. ولا هناك إعصار حتى يكون التشبيه مماثلا ومطابقا لما تريد أن تقوله .. ولكنك استخدمت الفكرة المعروفة فى أن الإعصار أقوى من الريح .. وأقدر على مواجهتها لتدلل على المعنى الذى تريده .. وهو أنك إذا كنت قويا فقد لقيت من هو أقوى منك .

وهناك مثل آخر يقول (قبل الرماية تملأ الكنائن) .. ومعنى ذلك أنك قبل أن تصل إلى ميدان الحرب وتقاتل وتبدأ الرمى بالسهام .. لابد أن تكون كنانتك

التى تمتلىء بالسهام وتحملها وراء ظهرك . . لابد أن تكون قد ملأتها . . وإلا لو ذهبت إلى الحرب وكنانتك خالية ، فلن تستطيع أن تقاتل . . تأتى أنت إلى ابنك مثلا وتجده طوال السنة يلعب ولا يذاكر . . ثم فى ليلة الامتحان يجلس طوال الليل محاولا أن يستوعب . . فتقول له : قبل الرماية تملأ الكنائن . . أى أنك لم تستعد طوال العام . . ولم تذاكر . . لذلك فإن كنانتك خالية . . فكيف تستطيع أن تذهب إلى الامتحان غدا . . وكان عليك أن تستعد قبل دخول الامتحان .

والمثال هنا لا يرتبط بواقع الشىء . . فلا ابنك ذاهب للقتال . . ولا توجد سهام ولا كنائن . . بحيث يكون التشبيه مطابقا للأحداث . . ولكنك لا تريد ذلك . . بل تريد أن تقرب المعنى أو أن تعبر عن المعنى ، بصرف النظر عن الواقع الحادث . . فبالتالى فإنك فى هذه الحالة تجعل السامع يفهم ما تريد .

وهكذا باقى الأمثال . . كلها لا تشبه شيئا بشىء بعينه . . بل إن الذى تقوله من واقع أحداثه قد يكون مختلفا عن الذى يحدث فعلا . . ولكنه يعطيك نفس المعنى ويقربه إلى عقلك ، ويجعلك تفهم وتعرف المراد منه . . وهناك مئات الأمثال التى نعرفها جميعا مثل أبدى المخض عن الزبد . . وما وراءك يا عصام . . إلى آخر هذه الأمثال التى نرددها كل يوم .

لماذا ضرب الله الأمثال ؟

والله سبحانه وتعالى قد ضرب لنا الأمثال . . ليقرب إلى أذهاننا معانى هى غيب عنا . . ذلك أن عالم الغيب لا يصل إليه العقل البشرى مهما اجتهد . . لأن هذا العالم محجوب عنا . . وكل ما هو محجوب عنا . . هو عدم بالنسبة للعقل . . والفكر البشرى لا يستطيع أن يصل إليه .

فمثلا إذا أخذنا الأشياء التى لم تكن موجودة فى حياتنا ثم أصبحت موجودة . . هذه الأشياء مثل التليفون أو التليفزيون أو الطائرة إلى آخر علم الله

الذى أظهره للإنسان ومكنه منه . . هل كان من الممكن قبل أن توجد هذه الأشياء أن يستطيع العقل استيعابها . . طبعا لم يكن من الممكن . . وحتى الأسماء التى وضعت لها . . لم تكن موجودة فى لغة البشر قبل أن توجد هذه الأشياء . . لأن العقل لم يكن يستوعب هذه الصورة . . أو هذا الاختراع الجديد . . وباختصار كل هذا فوق قدرة العقل البشرى . . وأدخله الله تعالى فى قدرة العقل البشرى بأن كشف الله له عنه . . وهكذا خرج إلى علم الإنسان . . وأصبح مألوفا لديه بعد أن كان مجهولا . . فلو اننا جئنا بإنسان ولد منذ خمسمائة سنة وناقشناه عن هذه الأشياء لما فهمها . . ولو قلنا له أن الإنسان يطير فى الهواء ويصل الآن إلى القمر ويخترق الفضاء لاتهمنا بالجنون . . ذلك لأن هذه الأشياء بالنسبة لعقله كانت معدومة تماما لا وجود لها . . ولكن الآن أصبحت تدخل فى نطاق العقل البشرى حتى العقل الذى لم يتعلم شيئا . . ولم يدخل المدرسة فى حياته . . فإنه لا يستغرب إذا قلت له . . الطائرة وسفينة الفضاء إلى آخر ما يقال .

الإيمان ضرورة

هنا لنا وقفة أن نمضى فى الحديث . . الله سبحانه وتعالى غيب عنا . . لم يره أحد . . ومع ذلك فإن لفظ الجلالة فى كل لغة من لغات الدنيا موجود . . وإذا قلت كلمة الله لأى إنسان لا يستغربها . . بل يحس بمعانى الجلالة والخلق . . والقدرة والقوة . . بشكل لا يتفق مع منطق الأشياء الدنيوية . . بل إن الملحدين الذين يحاولون ستر وجود الله سبحانه وتعالى . . إنما يؤكدون هذا الوجود . . ذلك لأن الشيء لا ينكر إلا إذا كان موجودا . . أما إذا كان غير موجود . . فإنه ليس محتاجا إلى إنكار . . فإنه بطبيعة عدمه لا يفرض أى جدل . . فإذا كان هناك كوكب مختف عنا فى السماء لا نراه . . هل يثور هناك جدل بين العلماء عن هذا الكوكب . . طبعا لا . . لأن الوجود أصلا انتفى . . ففيم الجدل . . والمشكلة نفسها التى تطرح هذا الجدل غير موجودة . . وإذا كان هناك فى باطن الأرض أو فى الغلاف الجوى أشياء لا نعرفها ولم نصل إليها . . هل يجادل أحد

فيها ؟ وكيف يقوم الجدل ونحن لا نعرفها . . وكيف يمكن المناقشة والعقل لا يستطيع أن يصل إليها . . ومن هنا . . فإن أى جدل يتم على شىء . . فلابد أن يكون هذا الشىء موجودا . . وكون أن أى إنسان يحاول ستر وجود الله . . ويقول إن الله سبحانه وتعالى غير موجود « وأعوذ بالله من هذا » فإنه فى هذه الحالة يثبت هذا الوجود . . وإلا فما الذى أنكره وما هو هذا الشىء الذى أحاول أن أثبت انه غير موجود .

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى موجود بذاته . . موجود بآياته . . تدرك العقول معنى لفظ الجلالة مصداقا للآية الكريمة :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ﴾

(سورة الأعراف ١٧٢ ، ١٧٣)

إذن فهذه الآية التى هى معجزة من معجزات القرآن تبين لنا كيف أن العقول كلها تدرك معنى لفظ الجلالة ، مع أن أحدا لم ير الله . . إلا أننا جميعا الجاهل منا والمتعلم . . والذى قرأ والذى لم يقرأ سطرا واحدا فى حياته ، إذا ذكر أمامه لفظ الجلالة كان له معنى وألفة . . ولم يستغربه أحد . . وهذا دليل لغوى على وجود الله سبحانه وتعالى . . ودليل على أن العقل يعرف خالقه . . وأن المعنى معروف لديه . . بل إن الذى يحاول ستر وجود الله . . نقول له إنك تثبت وجود الله ، ذلك انه لو كان الله سبحانه وتعالى غير موجود كما تزعمون . . ما كان هناك سبب لمحاولة ستر وجوده . . وكأنك فى هذه الحالة تثبت بأن الله موجود .

تلك هى المعجزة التى لابد أن نتنبه لها . . وأن نعرف أن الله سبحانه وتعالى موجود فى قلب وعقل كل واحد منا . . وأننا جميعا إذا ذكر اسمُ الله أمامنا . . عرفنا ولم نشعر بعدم ألفة . . وهذا اعجاز الله .

ولذلك فإن العقل البشرى . . وهو يألف وجود الله ويحس به . . يبدأ البحث فى الكون . . فيرى آيات الله سبحانه وتعالى الدالة عليه جل جلاله . . يرى الشمس كل نهار . . ويرى النجوم كل مساء . . ويحس بالهواء الذى يتنفسه والذى هو لازم لحياته . . ويرى الماء يملأ الأرض . . ويروى الزرع الذى يقتات منه وكيف خلقت التربة لتغطية هذا الزرع ليعيش . . ويرى نعم الله سبحانه وتعالى تحيط به فى كل مكان . . فالأرض ولو انها كرة مستديرة ، إلا أن الله سبحانه وتعالى قد مهدها له ليستطيع السير فيها والتنقل . . والإنسان ولو انه يقف فوق الأرض ورأسه فى الهواء . . إلا أن جاذبية الأرض تمسك به ، فلا يطير فى الهواء . . بل هو يستطيع أن يسير مطمئنا وقد لا يدرى أنه يسير فوق كرة كما كان فى الماضى قبل أن يعرف الناس كروية الأرض . . والأنعام التى خلقها الله سبحانه وتعالى للإنسان مسخرة له . . تعطيه اللبن وهو أحد مقومات الحياة . . وتعطيه اللحوم ولها منافع كثيرة . . والماء ينزل من السماء ليسقى الزرع والأنعام ولا ينتهى أبدا . . فكلما شرب منه الناس وارتوى منه الزرع . . وشرب منه باقى مخلوقات الله . . جاء مطر جديد لتستمر الحياة .

كل هذا النظام البديع الذى يسير عليه الكون لابد له من موجد ومن خالق . . قائم عليه بنظام غاية فى الدقة . . وهنا يعرف الإنسان بالعلم كما عرف بالفطرة . . أن لهذا الكون إلها هو الذى أوجد كل هذه النعم وهو الذى خلق الإنسان .

لماذا الرسل ؟

هذا غاية ما يستطيع أن يصل العقل إليه . . هو أن يعرف وجود الله بآياته فى الكون وفى الخلق . . ويعرف أنه إله واحد لا شريك له . . لماذا ؟ لأن الله قد أخبرنا بأنه هو الذى خلق كل هذا وسخره للإنسان . . ولم يستطع أحد أن يدعى أنه فعل هذا . . فلو أن هناك إلها آخر . . فاما أن يكون قد عرف . . وفى هذه الحالة كان لابد أن يتكلم ويخبرنا أنه خلق . . وإما أن يكون قد جهل هذا . . وفى هذه الحالة تسقط عنه صفة الألوهية . . ولذلك فإن قضية وحدانية الله سبحانه وتعالى محسومة تماما . . لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى قال إنه خلق وأوجد ولم تأت قوة أخرى لتقول انها خلقت أو أوجدت . . ولا تستطيع أى قوة أخرى أن تدعى ذلك . . فلذلك فالقضية محسومة فى أنه إله واحد لا شريك له . . هو الله سبحانه وتعالى . . ولا تحتاج إلى مزيد من المناقشة .

وإذا توصلنا إلى هذه الحقيقة ، وهى أقصى ما يستطيع العقل أن يصل إليه ، فإننا فى هذه الحالة محتاجون لأن نعرف ماذا يريد الله منا فى هذا الكون . . وكيف نعبده ونتقرب إليه ، ونشكره على هذه النعم التى سخرها لنا . . والتى لا يستطيع أحد أن يدعى أنه قام بتسخيرها .

من الذى يحدد الطريقة التى نعبد الله بها ونتقرب إليه ونشكره على نعمه . .

لاشك أن الذى يحدد ذلك هو الخالق والمعبود . . وهو الذى يقول يا عبدى إذا أردت أن تعبدنى وتتقرب إلى . . فافعل كذا . . ولا تفعل كذا . . فهووحده الذى يستطيع أن يحدد . . ومن هنا كانت حتمية الرسل . . بشر اختارهم الله سبحانه وتعالى وأوحى إليهم بما يريده من منهج العبادة فى الأرض . . وأن يبلغوا عباده كيف يتقربون إليه ويشكرونه على نعمه . . ويؤدون حق الألوهية له .

ومن هنا جاءت الرسل لتبلغ عن الله سبحانه وتعالى منهج العبادة الذى اختاره وارتضاه لخلقه . . وحتى يصدق الناس أن هؤلاء الرسل قد اختارهم الله سبحانه وتعالى ليبلغوا منهجه إلى الناس . . أيدهم بمعجزات تخرق قوانين الكون ونواميسه . . وحفظهم ليبلغوا رسالته . . فجعل لكل نبى معجزة لا يقدر عليها غيره من البشر . . وجعل هذه المعجزة دليلا على صدق الرسالة . . ووضع فيها من القوة والقدرة ما لا يستطيع إنسان أن يدعيه . . فلم تحرق النار إبراهيم . . ولا يستطيع أحد أن يسلب من النار خاصية الحرق إلا الله سبحانه وتعالى . . وانشق البحر لموسى . . ولا يستطيع أن يفعل ذلك إلا الله سبحانه وتعالى . . وأحيا عيسى الموتى بإذن الله . . وكانت معجزة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم هى القرآن الكريم الذى وضع فيه الله سبحانه وتعالى إعجازا متجددا إلى يوم القيامة ، يفيض على كل جيل بمعجزات لم يعطها للجيل الذى قبله .

ولماذا منهج السماء ؟

وهكذا جاءت الرسل بمنهج الله سبحانه وتعالى إلى البشر . . وجاءت بمرادات الله جل جلاله فى افعل ولا تفعل . . ولكن هل كان هذا لفائدة يرجوها الله سبحانه وتعالى من خلقه . . أبدا . . بل كانت رحمة وفائدة لخلقه .

والله سبحانه وتعالى خلق الكون بكل ما فيه من نعم قبل أن يوجد الإنسان . . ذلك لأنه لابد أن توجد النعمة قبل أن يوجد المنعم عليه . . فالإنسان قبل أن يوجد على الأرض كان لابد أن توجد مقومات حياته . . وكان لابد من وجود الهواء الذى سيتنفسه . . والطعام الذى سيأكله . . والماء الذى سيشربه . . والشمس والكون الذى سيخدمه . . إذن فكل هذه النعم وجدت قبل أن يوجد الإنسان وسخرت له . . ووجدت بجلال وكمال قدرات الله سبحانه وتعالى . . لم يستطع الإنسان أن يضيف إليها شيئا . . فلا هو اخترع غلافا جويا جديدا . . ولا أوجد أرضا أخرى كبيرة أو صغيرة . . ولا استطاع أن

يعطينا شمسا صناعية تفعل لنا ما تفعله الشمس التى خلقها لنا الله . . ولا أوجد نجوما وكواكب . . ولا استطاع أن يوجد بحارا أو أنهارا أو ماء صناعيا يشرب منه الناس . . وكل ما أعطاه الله سبحانه وتعالى للعقل البشرى من تقدم هو فى ترف الحياة وسهولتها . . فأصبح الماء يصل إليك فى مكانك . . وأصبحت تدوس على زر فيصنع لك الشيء فى دقائق . . وأصبحت تركب سيارة وطائرة وصاروخا . . كل هذا زيادة فى رفاهية العيش . . ولكن النعم الأساسية التى بها مقومات الحياة . . هى من خلق الله منذ بداية الكون .

إذن فمن كمال صفات الله . . أنه ليس محتاجا لعبادة خلقه . . ذلك لأن هذه الصفات هى التى أوجدت كل شيء فى هذا الكون قبل أن يوجد الإنسان فيه . . وإنما منهج السماء من أجلنا نحن عباد الله ، حتى نستطيع أن نتقرب إلى الله سبحانه وتعالى ، فيعزنا بفضله . . ويتغمدنا برحمته . . ويمتعنا بقدراته . . ولو إننا لم نقم بواجب العبادة ما نقص ذلك من ملك الله شيئا ولا من كماله . . ولا من جلاله . . فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أرسل الرسل بمنهج السماء فهو رحمة لنا . . قوة لنا فى الدنيا وعز . . ونحن نعرف أن الله يدافع عن الذين آمنوا . . وأن الله معنا . . ونعيم لنا فى الآخرة بقدرات الله سبحانه وتعالى . . لا يمكن أن نصل إليه ولا إلى شيء منه بقدراتنا نحن . . ولذلك فإن كل عاص لله . . لا يضر الله شيئا . . ولكن ، أى هذا العاصى أو الكافر هو الذى يخسر . . ويحرم نفسه من نعيم الله سبحانه وتعالى .

تقريب الغيب

وكما اقتضت قدرة الله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض وتسخيرها للإنسان . . اقتضت رحمته أن يضرب فى منهجه الأمثال . ليقرب إلى عقولنا المحدودة ما هو غيب عنا . . ذلك أن هناك أشياء حسية أطلعنا الله عليها . . وجعلنا نحسها ونراها . . وأشياء أخرى اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن تظل غيبا عنا كاختبار وامتحان إيمانى . . لذلك لم يطلعنا عليها وإن أخبرنا بها . .

وكان يجب على العقل البشرى .. أنه مادام قد وصل إلى اليقين بالله سبحانه وتعالى ، فيكفى أن الله قال .. فيصبح ذلك قضية إيمانية .. ولكن الله سبحانه وتعالى علم أنه سيأتى مضللون .. وأن هؤلاء المضللين .. تؤيدهم شياطين الإنس والجن .. سيحاولون أن يهزوا الإيمان فى القلوب .. وأن يشككوا الناس فى عقيدتهم .. ولا مجال فى ذلك إلا فى استخدام ما هو غيب لا نستطيع أن نراه أو نلمسه .. ذلك أن الرؤية عين يقين .. فمادمت أنا أراك أمامى فلست محتاجا إلى دليل آخر يقول لى أنك موجود معى فى الحجرة .. ولكن إذا كنت لا أراك فأنى أبحث عن دليل .. كأن أسمع صوتك .. أو أحس بحركتك .. إلى آخر هذه الأدلة المحسوسة .

هنا يأتى المضللون .. يحاولون التشكيك .. ليس فيما نراه .. ولكن فيما لا نراه .. ومن هنا يبدأ حديثهم .. محاولين أن يصلوا إلى ستر هذه الحقائق المخفية عن النفس البشرية أو إنكارها .. ورحمة من الله سبحانه وتعالى للعقل البشرى .. ورحمة بالمؤمنين .. ضرب هذه الأمثال ليقرب ما هو غيب عنا بشيء محسوس لنا .. ولا يقربه بالمثل (بكسر الميم) .. بل يقرب الفكرة نفسها بالمثل (بفتح الميم) .

فالله مثلا لا زمن عنده .. الأحداث عنده سبحانه وتعالى لا تخضع للزمن ولا لأية قيود .. ولكن لأن الإنسان يحكمه الزمن .. فكل مقاييس حياته منذ ولادته حتى مماته .. محسوبة بالزمن .. فهو يكبر بمرور الوقت .. وهو لا يفعل شيئا إلا ولابد أن يستغرقه زمن معين .. طال أو قصر .. وهو محدود بهذا الزمن .. ولذلك فعقله لا يستطيع أن يتصور أو يتخيل أن هناك أحداثا غير محكومة بالزمن .

والزمن مخلوق لله سبحانه وتعالى .. أى أن الله هو الذى خلق الزمن .. دوران الأرض حول نفسها من خلق الله .. ودوران الأرض حول الشمس من

خلق الله .. وهو الذى جعل العام اثنى عشر شهرا .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة التوبة)

.. إذن فالزمن مخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى .. والمخلوق لا يتحكم فى الخالق .. بل الخالق هو الذى يتحكم فى المخلوق .. يشكله كيف يريد .. أو يجعله عدما بعد خلق .. فتلك قدرات الخالق جل جلاله . يأتى الله سبحانه وتعالى فيقول فى كتابه العزيز :

﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الحج)

ويقول جل جلاله :

﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾

(من الآية ٤ سورة المعارج)

ويقول مالك يوم الدين ولا يحدده بزمن إلا أنه يوم .

ويقول العقل البشرى .. هل اليوم ألف سنة .. أو خمسين ألف سنة .. أم ما هو اليوم عند الله .. إن اليوم الذى نعرفه من شروق شمس إلى مشرق شمس أخرى .. أو من غروب شمس إلى غروب شمس مرة أخرى اليوم .. ذلك اليوم الذى نعرفه .. فما هو اليوم عند الله تبارك وتعالى ؟.

إن هذا الاختلاف فى زمن اليوم .. يفتح أمام العقل البشرى ويقرب إليه معنى نسبية الزمن .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه لا زمن عنده .. وأنه هوالذى يخلق الزمن .. فإن أراد أن يخلق يوما مقداره ألف

سنة . . قال له كن فيكون . . وإذا أراد أن يخلق يوما مقداره خمسين ألف سنة . . قال له كن فيكون . . وإذا أراد أن يخلق يوما مقداره مليون سنة . . قال له كن فيكون . . وإذا أراد أن يخلق يوما كيوم الدين . . يعلم الله سبحانه وتعالى وحده متى زمن هذا اليوم . . قال له كن فيكون . . وهكذا فإن الله قادر على أن يخلق ألف سنة فى يوم واحد . . وقادر على أن يخلق يوما واحد يساوى خمسين ألف سنة مما نحسب نحن ونعد . . وإن أراد أكثر من ذلك أو أقل . . قال كن فيكون .

إذن فمقاييس الزمن لا تحكم الله سبحانه وتعالى . . ولكنه هوالذى يحدد مقاييس الزمن . ومادامت مقاييس الزمن غير موجودة . . ولا تحد من قدرة الله . . فالله يستطيع أن يخلق يوما مقداره ٢٤ ساعة . . وأن يخلق يوما مقداره ألف سنة أو خمسين ألف سنة . . أو مائة ألف سنة أو مليون سنة . . فهو الذى يخلق ويختار .

فإذا قال الله سبحانه وتعالى يوم الدين . . فهو الذى يملك كل هذا اليوم بكل خصائصه وبدون أى مقاييس بشرية . . يحدد بدايته ونهايته . . فيستطيع أن يجعله لحظة . . ويستطيع أن يجعله ملايين السنين مما نحسب نحن .

إذن هذا الخلاف . . أو الاختلاف الذى ساقه الله سبحانه وتعالى فى زمن اليوم ، إنما أراد أن يقرب به إلى عقولنا . . كيف أن الله سبحانه وتعالى لا زمن عنده .

رحمة بالمخلوق

نأتى بعد ذلك إلى الأمثال التى ضربها الله سبحانه وتعالى . . فنجدها جميعا فيها رحمة لعباد الله . . فهى تحاول أن تقرب إليهم ما هو غيب عن العقل البشرى لا يستطيع أن يصل إليه . . وهى تقرب إلى عقولنا الجزاء الذى يعطيه

الله لنا سبحانه وتعالى فى الآخرة . . سواء كان هذا الجزاء عقابا أو ثوابا . . وهى تقرب إلينا معنى الحياة كلها . . منذ بدء الخلق حتى نهايته . . وهى تلفتنا إلى قدرة الله سبحانه وتعالى فى غير ما نراه . . حتى نعرف يقينا أن الله الذى خلق الناس جميعا . . وأعطاهم حقا متساويا . . يدافع عن كل خلقه بنفس القدر وبالتساوى . . وهو كما يحمى حقوقنا من غيرنا ، يحمى حقوق غيرنا منا . . وهو يلفتنا إلى حق الفقير والضعيف وكبير السن والوالدين . . وكل من له حق علينا . . حتى تكون حركتنا فى الحياة حركة صحيحة . . ثم بعد ذلك يعطينا الأمثال عن مواكب الايمان وكيف تتم . . والمهلكات فى الدنيا وكيف تحدث . . وما هو ظاهرها وباطنها . . كل ذلك بأسلوب يجعل الفكرة تدخل إلى عقولنا لنفهمها بمقاييس عالمنا المحس . . ولو أن القدرة هنا مختلفة ، والقوة مختلفة . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء . . ولابد فى كل حدث . . أن ننسب الحدث إلى الفاعل . . أو إلى قدرة الفاعل . . فلكل إنسان قدرات متفاوتة . . فإذا قال لك أغنى أهل الأرض أنه سيعطيك منحة . . وقال لك أفقرهم أنه سيعطيك منحة . . فكلاهما استخدم نفس اللفظ ، وهو كلمة (منحة) . . ولكن هل تساوى اللفظ فى المعنى ؟

نجد هنا أن اللفظ رغم أنه واحد . . إلا أن هناك تفاوتا كبيرا فى المعنى . . ما الذى أوجد هذا التفاوت . . نسبة الفعل الى الفاعل . . ذلك هو التفاوت الذى جعل اللفظ مختلفا تماما . . فأفقر أهل الأرض قد يعطيك قطعة صغيرة من الخبز أو شق تمرة . . وأغنى أهل الأرض قد يعطيك ملايين الجنيهات . . كلاهما منح . . ولكن هل تساوت المنحة . . أم أنه كان هناك تفاوت كبير لأن الفاعل مختلف .

فإذا نقلنا القدرة إلى الله سبحانه وتعالى الذى ليس كمثله شيء . . إذا قال الله سأمتعك . . وقال لك أحد أهل الأرض سأمتعك فاللفظ واحد . . ولكن هل المعنى واحد ! . . أبدا . . المعنى الأول ينسب إلى قدرات الله الذى ليس كمثله

شىء . . فيكون المتاع بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . . أما الفعل الثانى فيكون على قدرات البشر المحدودة . . وهو المخلوق الضعيف . . فما يستطيع أن يقدمه . . هو لا شىء بجانب ما تستطيع أن تعطيه قدرات الله سبحانه وتعالى .

إذن فالأمثال التى يضربها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم تقرب المعنى فقط ، وتجعله محسوسا للناس . . حتى إذا جاء من يضل . . وقال إن هذا الكلام فوق قدرة العقل وحاول أن يشكك فيه . . نقول له إن الله سبحانه وتعالى رحمة بنا قد ضرب لنا مثلا يقرب المعنى . . والأمثلة التى يضربها الله سبحانه وتعالى قد تكون فى القرآن وقد تكون فى الحياة نفسها . . فمثلا ما قاله الله عن خلق الإنسان . . وأطوار هذا الخلق من تراب ثم من صلصال . . ثم من حمأ مسنون ثم نفخ فيه من روحه .

أمثلة من الحياة

يأتى المضلون ليجادلوا فى هذا مع أنهم لم يشهدوا الخلق . . ويحاولون أن يشككوا فى القرآن الكريم . . ولكن الله سبحانه وتعالى جعل فى الحياة قضية محسوسة وهى الموت . . لترد عليهم وعلى اضلالهم . . فالموت نقض للحياة . . والشىء الذى ينقض . . أول ما ينقض فيه هو آخر ما تم فيه . . فالعمارة يبدأ هدمها من آخر طابق ارتفع اليه البناء . . وأنت حين تذهب إلى الاسكندرية مثلا . . وتريد أن تعود مرة أخرى ، فإن أول خطوة فى العودة هى آخر خطوة فى الذهاب .

فلننظر ماذا يحدث فى الموت وهو نقض للحياة . . أول ما يخرج من الإنسان هو الروح أو النفس . . وهو آخر ما دخل فيه . . هذه النفخة تتوقف ، فيكون هذا أول نقض للحياة . ثم يتعفن بعد ذلك ويصبح طريا كالصلصال . . ثم يصير ترابا ويعود إلى الأرض . . هذا هو نقض الحياة ، وهو أمر غيبى عنا . .

وهكذا شاءت ارادة الله سبحانه وتعالى . . أن تجعل الموت مثلا محسوسا عما هو غيب عنا وهو خلق الحياة .

الإنسان يضرب مثلا

على أن الله سبحانه وتعالى قد ضرب لنا الأمثال وسمع الأمثال التى يضربها الناس برسول الله ، محاولين التشكيك فى الإيمان . فرد عليها . . وهذه الأمثال رغم إنها قد مر عليها أكثر من ١٤٠٠ سنة . . فمازالت كما هى تستخدم فى الاضلال .

ويقول الله سبحانه وتعالى فى سورة يس :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾

وهكذا أراد الإنسان العاجز وغير القادر على أن يضرب مثلا لله القادر سبحانه وتعالى . . فتساءل الإنسان عمن يحيى العظام وهى رميم بعد أن تصبح ترابا . . ورد الله سبحانه وتعالى على ذلك بأن المعجزة أمامكم . . فهذه العظام أين كانت قبل أن توجد وتخلق . . كانت ترابا مثلما هى الآن . . فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلقها من التراب ، ألا تستطيع قدرته أن تعيد خلقها مرة أخرى من التراب . . علما بأن إعادة الشيء أسهل من عمله أول مرة . . وإن كانت قدرة الله لا تعرف الصعب ولا السهل . . على أننا سنتناول هذا المثل بالشرح فى فصل قادم .

وتلك الأمثال

على أننا لابد أن نفطن أن الله سبحانه وتعالى حين يضرب الأمثال فى القرآن الكريم . . يأتى بالأمور مجتمعة . . ولا يأتى بها فرادى . .

ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾

(من الآية ١٧ سورة البقرة)

إذن فهو قد جاء بالأمر جامعا ولم يأت به فرادى . . فلم يبدأ بأن الناس جمعوا الحطب . . ثم ذهبوا إلى مكان كذا ثم أشعلوا النيران . . بل جاء به مكتملا . . وقول تعالى :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٤٥ سورة الكهف)

كأنه جاء بالحياة كلها مجتمعة ولم يأت بتفصيلها . . ولكن جاء بها من أولها إلى آخرها . . وهو يريد أن يضرب مثلا حالة بحالة . . دون الدخول فى تفاصيل .

كما يلاحظ فى الأمثال أنها تأتى مطلقة . . بمعنى أنها لا تنطبق على حالة معينة . . أو زمن معين أو أفراد معينين . . حتى الأفراد الذين يضرب الله المثل بهم لا يأتى بذكر أسمائهم . . لماذا ؟ . . لأنه ليس المقصود هو الفرد ولا الحالة بعينها . . بل إن هذه الأمثال تتكرر فى الدنيا وفى كل العصور . . الذى قال : « أوتيته على علم عندى » . . موجود منه الألوف فى هذا العصر . . وفرعون الذى يطغى ويستبد ويريد أن يعبد فى الأرض . . موجود منه عشرات من الحكام الذين ينصبون أنفسهم آلهة . . والذين يستبدون ويعذبون الناس ويملأون السجون . . والمعتقلات . . وغيرهم من الأمثال التى ضربها الله سبحانه وتعالى . . كمثل صاحب الجنتين الذى كان مزهوا بما يملك . . وأصحاب الجنة الذين أقسموا « ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون » . . والذين حاولوا أن يأكلوا حق الفقير واليتيم والمسكين فيما أعطاهم الله من مال . . وفيما أعطاهم من رزق . . والكفار الذين يحاولون أن يضلوا الناس بغير علم ويزينوا لهم السوء . .

كل هؤلاء وغيرهم ممن ضرب الله بهم مثلا فى القرآن الكريم . . تتكرر قصصهم فى كل عصر . . وتجدهم فى كل زمن . . . بل إن أولئك الكفار الذين يقولون « وما يهلكنا إلا الدهر » ويحاولون إنكار وجود الله . . هم أيضا موجودون بنفس الحجج التى قيلت وبنفس الأمثال .

الله يتحدى

على أن الأمثال فى القرآن الكريم لا تقتصر على ذلك . . بل إن فيها تحديا للبشرية كلها مثل قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة الحج)

وفى هذا يتحدى الله سبحانه وتعالى البشرية كلها . . بالعلم الذى سيحققونه أنهم لن يصلوا إلى خلق ذبابة . . ولا إلى استرجاع ما يأخذه الذباب من طعامهم أو شرابهم . . وهذا دليل على ضعفهم (مما ستتحدث عنه بالتفصيل فى الفصول القادمة) . . على أن هذا التحدى فى خلق أضعف المخلوقات وهى الذبابة . . يريد الله أن يؤكد به أن البشرية قد تصل إلى القمر . . وإلى المريخ . . ولكنها لن تستطيع أن تصل إلى سر خلق الحياة أو المادة الحية . . فهى ستظل عاجزة على مر السنين عن ذلك .

كذلك ضرب الله الأمثال فى دقة الخلق بالنسبة لخلق البعوضة ، وما فوقها ، أى ما هو أدق منها .

إلى هنا نكون قد بينا أن الله سبحانه وتعالى بضربه الأمثال فى القرآن الكريم ، يريد أن يقرب إلى الذهن البشرى أشياء هى غيب عنه . . وأن يجعل فكرة هذه الأشياء قريبة دون أن يطلع الإنسان عليها . . أو يكون التشبيه بالمثل . . وأنه فى هذه الأمثال التى تناولت ستر وجود الله ومصير المكذبين . . والجنة التى وعد بها المتقون . . ومواكب الرسل . . ومواكب الايمان . . إنما قد تناولت أمثالا لا يتكرر حدوثها فى كل عصر . . لتظل الموعظة دائمة . . كما تناولت تقريب المفاهيم ليمكن الرد على ادعاءات المضلين . . والله سبحانه وتعالى قد لمس بهذه الأمثال جوانب كثيرة فى حياة البشر .

ومن الأمثال التى ضربها الله فى القرآن الكريم مثل مواكب الرسل وبشرية الرسول ، والتكذيب الذى يقابل به . . وكيف أن المكذبين لا يكتفون بانكار رسالة الرسول وعدم الايمان بها . . بل يحاولون ايذاءه هو والمؤمنين . . وكيف تسير مواكب الايمان بعد ذلك . . وكيف يقابلها هؤلاء المكذبون . . هذا المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى . . ينطبق على مواكب الرسل منذ بداية الرسالات السماوية وحتى نهاية الدنيا . . وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفَصْلُ الثَّانِي

مَوَاكِبُ الرُّسُلِ



نبدأ بالمثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى عن مواكب الرسل والرسالات . . وكيف يقابلها أهل الأرض . . والمثل الذى ضربه الله حول هذه القضية لا يزال يعيش بيننا حتى الآن ، بالرغم من انتهاء الرسالات . ومازال نفس الجدل الذى أنبأنا الله عنه نسمعه . . وكأنما كان الله سبحانه وتعالى يريد أن يحصننا ضد هذا الجدل . . وضد الذين يضلون عن سبيله . . وأعطانا المثل عنهم .

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَٰئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة يس)

نتوقف عند هذه الآية لنشرح الجزء الأول من المثل الذى ضربه الله لموكب الرسالات . .

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ الْقَرْيَةِ ﴾

(سورة يس)

ولم يقل تبارك وتعالى أية قرية . . ومن هنا . . فإن هذا المثل ينطبق على كل قرية . . أو كل جماعة من الناس تسكن قطعة من الأرض فيها نعمة من نعم الله يتمتعون بها . . ويقيمون عليها حياتهم .

لماذا قال الله « أصحاب القرية » ولم يقل أهل القرية . . لأن الذين يقاومون رسالات السماء ويحاربون الرسل هم أصحاب النفوذ والسلطان الذين أترفوا فى الحياة الدنيا وأعطاهم الله الجاه والملك . . وفى غالب الأمر يكون باقى الناس تبعا لهؤلاء . . أما خشية من نفوذهم وسلطانهم وإيذائهم . . أو محاولة للتقرب منهم باعتبارهم الوسيلة المتاحة أو الظاهرة للحصول على نعم الدنيا . . ولو علم هؤلاء الناس الحقيقة وآمنوا بأن الرزق بيد الله . . وأن أصحاب النفوذ لا يملكون لهم نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله . . لتغيرت الصورة تماما . . ولكن الناس تأخذ بظاهر الأشياء . . وتعتقد أن صاحب النفوذ يستطيع أن يمنح ويمنع . . ويمكن أن يعطى ويأخذ . . ورغم أن الله سبحانه وتعالى يضرب الأمثال فى الحياة . . فيصبح صاحب النفوذ والسلطان بين يوم وليلة وقد زال عنه كل شيء ويهرب من مكان إلى آخر . . محاولا إنقاذ حياته . . لو تأمل الناس هذا لعرفوا أن الذى لا يستطيع أن يحمى نفسه ويبقى النعم التى يتمتع بها لا يستطيع أن يحمى أحدا أو يهبه شيئا . . وإلا لكان من الأولى أن يهب لنفسه ملكا لا يزول ونفوذا لا ينمحى . . ولكن لأن الدنيا تمضى بالأسباب ، فيجعل الله سبحانه وتعالى إنسانا سببا فى أن يجرى الله نعمته على إنسان آخر . . ولكن المنعم عليه ينسى المنعم الحقيقى وهو الله سبحانه وتعالى . . ولا يتذكر إلا الأسباب التى أعطته . . وظاهر الشيء الذى أمامه . . فيعتقد أن فلانا يستطيع أن يمنح ويمنع . . والحقيقة أن الله يجرى على يد من يشاء من عباده هذه النعم . . وأنه لولا مشيئة الله ما أخذ أحد شيئا .

ومن هنا . . فإن المؤمن إذا جاءته نعمة نسب الفضل لله سبحانه وتعالى أولا . . لأنه يعرف أنه المنعم الحقيقى . . وغير المؤمن إذا جاءته نعمة نسب الشيء للإنسان لأنه لا يؤمن بالله .

ومن هنا جاء المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى بلفظ « أصحاب القرية » على أساس أن هؤلاء هم الذين يكذبون الرسل ويؤذونهم ، ويحاولون بما أتاهم الله من نعمه أن يبارزوا الله بالمعاصى .

لماذا يحاربون الرسل ؟

ولكن . . لماذا يحارب هؤلاء الذين أترفوا فى الدنيا . . لماذا يحاربون الرسل . . ؟ الجواب على ذلك أنهم يخشون على نفوذهم وسلطانهم من الحق ومن رسالات السماء . . ذلك أن هؤلاء الناس أقوياء بحكم ما هم فيه . . وهم فى قوتهم يظلمون ويأكلون الحقوق بالباطل ، ويفعلون ما يريدون دون ما مراعاة لحق الضعفاء . . وهم يتخذونهم عبيدا . . أو يجعلونهم يعملون من أجلهم ولا يعطونهم حقوقهم أو أجورهم . . أو يقننوا لأنفسهم أشياء تميزهم عن بقية أهل القرية بحجة السيادة أو حقوق الحكم إلى آخر ذلك . . ولكن الله سبحانه وتعالى لا يعرف صاحب نفوذ . . ولا يحابى أحدا . . فهو العدل المطلق . . يعدل بين الناس جميعا . . والرسالات السماوية أساسها حماية الضعيف من القوى . . وغير القادر من القادر ذلك أن القوى والقادر يستطيعان أن يصلا إلى حقوقهما وأن يجورا على حقوق غيرهما من الضعفاء . . ومن هنا فإن الرسالات السماوية تحرس حق الضعيف وتعيده إليه . . وتجعل الناس متساوين . لا فرق بين أحد ، تجعل الاعتداء على حقوق أضعف الضعفاء كالاعتداء على حقوق أقوى الأقوياء . . كلاهما جريمة لها عقاب . . والعقاب متساو لا ينظر إلى نفوذ أحد . . ولا إلى مركزه . . ولا إلى مقامه . . وإنما ينظر إلى الجريمة نفسها . . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما جاءوه يتشفعون فى امرأة من عائلة شريفة سرقت ، ويريدون ألا يقيم عليها الحد . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم إذا سرق الشريف منهم تركوه . وإذا سرق

الضعيف منهم أقاموا عليه الحد . . والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها » . ﴾

هذه هى رسالات السماء التى لا تميز بين شريف وضعيف . . وتحاسب الناس بأعمالهم . . وليس بأنسابهم ولا بنفوذهم ولا بأموالهم .

ومن هنا فإن أول من يقاوم رسالات السماء ويحاول أن يكذبها هم أصحاب الجاه والنفوذ والمال والسلطان ، لأنها ستجرد هؤلاء من ميزات حصلوا عليها بالباطل وفرضوها . . وستجعلهم مساوين للضعفاء فى الحقوق والواجبات . . وستقضى للضعيف من القوى . . فإذا رأوا أن ذلك هو زوال لنفوذهم وذهاب لسلطانهم ، كانوا أول مكذب للمحافظة على جاه الدنيا وزخرفها .
إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا فى أول المثل إلى أن الذين يقفون موقفا معاديا من رسالات السماء هم أصحاب النفوذ والسلطان والترف .

تعاقب الرسالات

ويمضى الله سبحانه وتعالى فى ضرب المثل :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾

(سورة يس)

هنا يريد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى أنه قد أرسل إلى بنى آدام أكثر من رسول . . وذلك ليعلم الناس أن هناك موكب رسالات . . أولئك الذين عاشوا فى الأيام الأولى يعرفون أن هناك رسلا ستأتى بعدهم . . وأولئك الذين يعيشون

بعد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم يعرفون أنه كان هناك موكب للرسل انتهى بخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم . . وقد أنبأ الله فى القرآن عن الرسل السابقين . . وذلك من رحمة الله بعباده . . أنه لم يرسل رسولا واحدا فقط . . لماذا ؟ . . لأنه لو أرسل الله سبحانه وتعالى رسولا فى أول البشرية بتعاليم من الله . . ثم بعد ذلك تعاقبت الأجيال . . وأخذ كل جيل جزءا من رسالة الله . . لضاعت الصورة كلها . . ولجئنا يوم القيامة مجادلين بأن ما وصلنا عن الله سبحانه وتعالى هو غير ما أراده الله . . وهنا لا يكون الحساب عدلا . . ولكن الله سبحانه وتعالى أرسل مواكب الرسل لتبين وتظهر ما حرّف فى الرسالات السابقة . . وما أخفى عن الناس . . وما نسى بقدم العهد . . كل رسول يعالج الداءات التى حدثت . . والانحراف عن منهج الله الذى تم . . وكان هناك أكثر من رسول فى وقت واحد كإبراهيم ولوط عليهما السلام .

ثم حين جاء الكتاب الخاتم وهو القرآن الكريم . . وحتى يضمن الله أن يصل هذا القرآن إلى عباده كما نزله ، تعهد الله تبارك وتعالى فقال :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

وهكذا فإن الحفاظ على القرآن الكريم حفاظ من الله تبارك وتعالى .

﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة فصلت)

وهكذا كانت خاتم الرسالات يحفظها الله . . وتصل إلى البشر وليس فيها إخفاء ولا تبديل .

وقد يتساءل البعض . . لماذا لم ينزل الله سبحانه وتعالى الذكر من عهد آدم مرة واحدة ، ويحفظه الله من أول الخلق إلى يوم القيامة ؟ . .

نقول . . إن الدنيا فى أولها كانت مجتمعات صغيرة متباعدة قد يعيش مجتمع منها ويفنى دون أن يعرف شيئا عن المجتمع الآخر . . ولذلك كانت الداءات مختلفة . . اقتضت رسولا إلى كل أمة . . ليعالج داء انتشر فيها . . حتى أن الأمر اقتضى كما قلنا ، أن يكون هناك أكثر من رسول فى وقت واحد . . ثم تقدم العالم . . وزالت بينه فوارق الزمن والمكان . . بحيث أصبح ما يحدث فى مكان يصل إلى المكان الآخر فى أيام . . ثم فى ساعات . . ثم تقدم الزمن وأصبح ما يحدث فى أى مكان يصل إلى العالم كله فى دقائق معدودة . . وهكذا توحدت الداءات . . وأصبحت وحدة المعالجة ضرورية فنزل القرآن الكريم ليعالج قضية موحدة . . هى قضية البشرية كلها . . نزل للناس كافة . . لأن الداءات قد توحدت . . وأصبح لابد من وحدة المعالجة .

على أن الرسالات السماوية فى جوهرها ودعوتها للتوحيد واحدة . . وإن اختلفت فى أحكام أخرى بما يلائم تطور الزمن . . فإنه يجمعها جميعا :

أنه لا إله إلا الله . . وأن المعبود الحق هو الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له .

لماذا الرسل ؟

وقبل أن نمضى فى شرح المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى ، لابد أن نشرح لماذا جاءت الرسل ؟ . . ولقد بينا فى الفصل السابق أن الرسل أساسا قد جاءوا لتبليغ منهج الله فى افعل ولا تفعل . . وأن الانسان يستطيع أن يهتدى بعقله إلى أن هناك خالقا للكون كله هو الله سبحانه وتعالى . . ولكنه لا يستطيع أن يعرف ما هى مرادات الله من خلقه . . ولا كيف نعبد الله . . وكيف نشكره على نعمه .

والله يبين ذلك فى القرآن الكريم فيقول فى سورة ابراهيم :

﴿ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

إذن فأساس الرسالات السماوية وهو الرحمة والمغفرة من الله سبحانه وتعالى . . الرحمة بخلقه وبعباده الخطائين . . وكل ابن آدم خطاء . . والله سبحانه وتعالى خلقنا ليمتعنا بالجنة . . وينعمنا نعيما أبديا على حسب قدراته هو سبحانه وتعالى . . وهذا تكريم لبنى آدم . . وأراد أن يجعل الدنيا اختبارا لحب الله فى قلوبنا . . فمن أحب الله وأخلص له فاز بالجنة . . ومن عصى الله وخالفه واستهان بأوامره . . عاقبه الله سبحانه وتعالى بالنار . . ولقد وضع الله للحياة الدنيا دستورا . . فيه صلاح البشر . . ولا يوجد من هو أعلم من الله بالحياة الآمنة الطيبة الكريمة للإنسان . . فالله هو صانعنا . . وصانع الشىء هو الأدرى والأعلم بما يفسده ويصلحه .

ولقد خلقنا الله مختارين . . قادرين على المعصية . . وقادرين على العبادة . . لأنه أرادنا أن نأتيه عن حب واختيار . . لا عن قهر كالمخلوقات التى خلقها الله سبحانه وتعالى ، مقهورة على طاعته كالملائكة . . ولذلك أسقط الله سبحانه وتعالى عنا القهر والإكراه . . فمن أتى بعمل الخير وهو مكره ومجبر ومقهور . . بينما هو فى حقيقة نفسه لا يريد أن يعمل هذا الخير . . فلا يثاب عليه . . ومن أكره على عمل سوء ، وهو يريد خيرا لا يعاقب عليه مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾

(من الآية ٦ سورة النحل)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة النور)

إذن أساس الرسالات هو دعوة من الله سبحانه وتعالى للبشر لأن يمتعهم فى الآخرة خالدين فيها متمتعين بنعم لا تزول .. تأتى إليهم بمجرد أن تجول فى خاطرهم .. وكل ما هو مطلوب من الإنسان .. هو أن يتبع منهج الله الذى يعطيه الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة .. وجاءت الرسل ليبشروا خلق الله برحمة الله سبحانه وتعالى وإنعامه عليهم .. وهو بعد أن خلق لهم النعم فى الدنيا .. خلقهم فيها .. زاد فضلا على فضل .. بأن خلق لهم الجنة لينعموا بها فى الآخرة .. ولذلك فإن قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

يدل على أن منهج الله هو رحمة بعباده وخلقه .. ودعوة للتمتع الحقيقى بنعم الله فى الدنيا والآخرة .

ومن رحمة الله أيضا .. أن منهجه هو تثبيت للإنسان فى حياته الدنيوية .. ذلك أن الله قد خلق الدنيا وخلق لها أسبابها التى تعمل بها .. ولكن هذه الأسباب ليست قيدا على المسبب .. ولا تعمل بذاتها .. أو تعطى بذاتها .. وإنما تعمل وتعطى بإرادة الله الذى له طلاقة القدرة التى هى موجودة ونراها جميعا فى ضعيف ينصره الله على قوى .. وفى مظلوم ينصره الله على ظالم .. وفى أحداث فى الدنيا لا تمضى بالأسباب .. فكلمة (ربنا موجود) .. أو (ربنا

كبير) . . أو (ربك يمهل ولا يهمل) . . كلها كلمات رددها كل واحد منا فى حياته . . وهذه الكلمات لا تقال إلا إذا ظهرت طلاقة القدرة فى حدث مر بنا . . ذلك أنه إذا انتصر قوى على ضعيف . . فتلك تتطلب منا أن نتذكر قدرة الله ونقول (ربنا موجود) . . ولكننا لا نقول هذه الكلمة إلا إذا تعطلت الأسباب . . وصارت ارادة المسبب عكس ما تعطيه الأسباب . . ومن هنا فإننا نصيح من أعماقنا لأننا نرى قدرةالله مجسدة أمامنا فى حدث من الأحداث .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يثبت عباده المؤمنين ومن هنا فإن رسالات السماء تأتى لتؤكد أنه إذا عزت الأسباب على المؤمن . . فإنه يرفع يديه إلى السماء ويصيح يارب . . لأنه يعلم أنه إذا كانت الأسباب لا تعطيه . . فإن المسبب قادر أن يعطيه بدون الأسباب . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يقول . .

﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة يوسف)

وما الذى يحدث عادة حين تضيق الأسباب بالناس . . وتغلق الدنيا أبوابها فى وجوههم . . الكفار وغير المؤمن بالله يصيبه يأس قاتل ينتهى به إما إلى الجنون أو إلى الانتحار . . ولكن المؤمن يظل ثابتا . . لا تزعزعه الأحداث . بل يرفع يديه إلى السماء ويقول (يارب) . . وهو مؤمن بأن الله سيجعل له مخرجا .

وهكذا جاءت رسالات السماء لتثبت الذين آمنوا فى الحياة الدنيا وتبشرهم بالجزاء العظيم الذى ينتظرهم فى الآخرة برحمة من الله . . حتى يحيوا حياتهم فى الدنيا وهم مرفوعى الرأس بلا ذل لأحد . . ويحيوا فى حياتهم الآخرة وهم فى نعيم مقيم لا يفارقهم أبدا . . هذا جزاء المؤمنين إن أحبوا الله وعبدوه .

والجزاء هنا على قدرات الله . . وليس على قدرات البشر . . والله سبحانه وتعالى لا يطلب منهم رزقا ولا مالا . . وإنما يطالبهم بالعدل والاصلاح

والصلاح .. إذن فالرسل جاءوا مبلغين لمنهج الله .. مبشرين من أطاعوه .. منذرين من عصوه .. مثبتين الذين آمنوا أمام أحداث الدنيا وتقلباتها .

بشرية الرسول

وتمضى الآية الكريمة وهى تورد حجج الكافرين منذ إرسال الرسل وحتى هذه الساعة .. تقول الآية :

﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾

(الآية ١٥ سورة يس)

وهذه الحجة .. حجة تكذيب الرسول لأنه بشر استخدمها الكفار من عهد نوح ويستخدمونها حتى الآن .. محاولين بذلك أن يصلوا ببشرية الرسول إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يرسل شيئا .. حتى أننا فى هذه الأيام لا نزال نسمع من يقول إن محمدا كان بشرا يصيب ويخطىء .. وأن قوله يؤخذ ويترك .. بل إن أساس طعن المستشرقين فى القرآن هو محاولاتهم كذبا وافتراء أنه قول بشر .. مع أن قضية بشرية الرسول قضية حتمية .. ولو لم يكن بشرا .. لكان ملكا أو مخلوقا من أى نوع آخر .. ولوجد من يطعن فى الرسالة .. وسنبين هذا بالتفصيل .

رسالة الله سبحانه وتعالى هى للبشر .. ورسالة الله هى منهج لابد أن يطبق أمام الناس حتى يتبعوه .. وأن يكون هذا التطبيق صحيحا بواسطة بشر يوحى إليه ، محروس من الله سبحانه وتعالى .. مؤتمن على تبليغ الرسالة .. ومن هنا فإن الرسول الذى يأتى بمنهج السماء .. بلاغا عن الله .. إنما يطبق هذا المنهج على نفسه أولا .. ولا يجعل أحكام المنهج تعطيه ميزة عن باقى المؤمنين، ولذلك إذا أردت أن تعرف هل هذا منهج حق .. أو منهج باطل .. أنظر إلى مبلغه أو من يقدمه لك .. فإن رأيت أنه حقق ميزات لنفسه .. وجعل نفسه مميزا عن

باقى الذين معه . . فاعلم أنه منهج بشرى وضعه صاحبه ليحقق ميزات ومكاسب لنفسه . . وإن رأيت أن هذا المنهج لا يحقق أى ميزة لصاحبه بل يساوى بين الناس جميعا . . ويتحمل صاحبة المشقة من أجله . . فاعلم أنه منهج حق . . ذلك أن مناهج وقوانين البشر الأساس فيها أنها تحقق ميزات لمن وضعوها أو للقائمين عليها . . فذلك هو سبيل المنهج البشرى . . يبيح لمن يضعه ما يحظره على الناس جميعا . . أما منهج السماء . . فإن أول من يتبعه هو الرسول . . ولا يأتى أبدا بشىء يخالفه ولا يحقق لنفسه ميزة فوق المؤمنين .

إذن فالرسول بشر . . جاء مبلغا بمنهج السماء . . وحياته هى التطبيق لهذا المنهج . . وهنا تكون بشرية الرسول حتمية . . لماذا ؟ . . لأنه لو أرسل الله ملكا لقال الناس يارب . . هذا ملك . . مخلوق من نور . . ونحن مخلوقون من طين . . له قدرات فوق قدراتنا البشرية . . ولذلك فقد كلفتنا يارب أكثر مما تطيق قدراتنا . . ولكن كون الرسول بشرا . . وكونه من بين قومه . . وكونه يطبق المنهج . . تسقط حجة هؤلاء جميعا .

إذن فبشرية الرسول محتمة . . حتى لا يقول الناس أن هذا المنهج موضوع لملك . . له فوق قدراتنا . . أو موضوع لمخلوق يتميز عنا فى القدرات والخلق . . ولكن الله أتى ببشر . . اختاره من بين قومه . . حتى يكون شهيدا عليهم يوم القيامة . . فإن قالوا حجتنا أن المنهج كلفنا ما لا نطيق . . كانت هذه الحجة مردود عليها بأن هذا المنهج طبقه بشر مثلكم . . ولم يتحمل فوق ما يطيق . . وكان مثلا لكم لابد أن تحتذوا به . . ومن هنا فإن عدم بشرية الرسول تكون حجة على الرسالة وليست حجة لها . . ومجالا للطعن فى عدم مناسبة التكليف للمكلف به . . ولكن لكون الرسول بشرا . . فذلك عين الحكمة . . لنقول أن هذا التكليف قام به بشر مثلنا ونحن قادرون على القيام به .

وكان أجدر بهؤلاء الكافرين . . أنه مادام الرسول بشرا . . ومادام فى قدراته القيام بالتكليف . . كان الأجدر بهم أن يناقشوا التكليف نفسه . . وكيف يدعو إلى الخير والرحمة وطيب الخلق والتسامح والتكامل . . وكل القيم العليا التى جاءت بها الرسالات السماوية . . وحتى هذه اللحظة نجد أن من يثير نقطة بشرية الرسول . . يحاول أن يدفع بها عن نفسه وغيره قراءة المنهج . . بالتقييم الصحيح . . وهو لأنه يحس أن هذا المنهج حق . . وأنه لا يستطيع أن يناقشه . . يدفع القضية كلها محاولا إثارة قضية بشرية الرسول ليتخذها حجة فى أن يقول إنه مادام بشرا يخطىء ويصيب . . فلن آخذ عنه . . ولو أنه كان يريد النقاش حقيقة لناقش فى هذه المنهج نفسه . . ولما هرب باثارة هذه القضية الوهمية التى هى ضده وليست له . . فبشرية الرسول حتمية لتطبيق الرسالة على أساس أنها للبشر . . وليست لمن يملكون قدرات غير بشرية .

فإذا قرأت الآن من يثير قضية بشرية الرسول . . فأعلم أنه لا يستطيع مناقشة منهج الله . . ولذلك فهو يحاول أن يهرب بكلام هو ضده وليس له .

الإسلام والقهر

وتمضى الآية الكريمة بعد أن ضربت لنا المثل بأن الكفار يستخدمون بشرية الرسول فى محاولة لتكذيب الرسالات وإيهام الناس كذبا أنها ليست من عند الله . . تمضى الآية الكريمة :

﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة يس)

حينما كذب أصحاب القرية المرسلين . . التجأ المرسلون إلى الله سبحانه وتعالى يشهدونه فقالوا :

﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة يس)

أى أننا لا نكذب على الله فى الرسالة التى جئنا بها . . ولماذا نكذب إذا كنا لا نحقق ميزة . . لو أننا جئنا بمنهج بشرى نحقق به ميزة لكان أول شيء نفعله أن نحاول ارضاء أصحاب النفوذ والجاه . . ذلك لأن هؤلاء هم الذين يملكون أسباب فائدتنا . . ومن هنا فلا يعقل أن نكون قد جئنا برسالة بشرية نعادى بها هؤلاء الناس . . لأن ذلك ضد منهج البشر . . وتصرف البشر . . فالإنسان عادة إذا أراد فائدة دنيوية يبحث أين هؤلاء الذين يملكون هذه الفائدة الدنيوية . ثم يبدأ فى نفاقهم . . ويضع المنهج الذى يعتقد أنه يرضيهم . . أما إذا جاء بمنهج يغضبهم به لأنه ينتزع ميزاتهم . . ويحاول أن يساوى بينهم وبين غيرهم . . فإنه فى هذه الحالة يتعرض لبطشهم . . بدلا من مكافآته منهم . . وفى هذا يكون المنهج الذى أتى به . . منهج حق . . وهؤلاء الرسل جاءوا بمنهج الحق . . وهم لا يحاولون أن يطبقوا ما أتوا به بالقوة والعنف . . بل هم يبلغون رسالات الله . . والله الذى خلق الإنسان مختارا . . ومتمتعا بحرية الاختيار . . فى أن يفعل أو لا يفعل . . يترك هذا الإنسان بعد أن تم ابلاغه برسالة ربه . . يتركه بعد ذلك ولا يقهره الله سبحانه وتعالى وهو قادر على ذلك . . لا يقهره على الإيمان .

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى لرسوله :

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة يونس)

ويقول جل شأنه :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾

(من الآية ٢٥٦ سورة البقرة)

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ولذلك فإن مهمة الرسول ابلاغ منهج الله للناس . . والدعوة إلى الله بالقول . . والموعظة الحسنة . . ثم بعد ذلك من يدخل فى دين الله ويؤمن . . يجب أن يدخل وهو راغب فى الإيمان . . وهو مريد لهذا الإيمان .

وهنا نقطة لابد أن نتحدث عنها . . ذلك أن عددا من المستشرقين يتهم الإسلام بأنه قد انتشر بالسيف . . وأن الناس كانوا يخيرون بين الإيمان أو القتل . . وأن الفتوحات الإسلامية هى التى نشرت الإسلام بالسيف . . وهذا قول يحمل بهتانا عظيما . . ذلك أنه لو كان الإسلام قد انتشر بالسيف . . لما وجد فى الدولة الإسلامية غير المسلمين . . ولكن وجد فى الدولة الإسلامية اليهود والنصارى . . وظلوا على دينهم لم يحاول أحد أن يقتلهم أو يدخلهم فى دين الإسلام قهرا . . بل تركوا على دينهم . . وما تمتع هؤلاء بحرية العبادة وأمان الحياة إلا فى ظل الدولة الإسلامية . . حتى أن أقباط مصر الذين كانوا يختفون فى المغارات وقت الحكم الرومانى . . قد خرجوا إلى الآفاق فى أيام الحكم الإسلامى . . وكانوا يؤدون عبادتهم فى حماية الحكومة الإسلامية .

ومن هنا فإن القول بأن الإسلام قد انتصر بالسيف قول كاذب . . ولكن الإسلام استخدم السيف ليدافع عن حرية الكلمة . . وحرية العقيدة للبشرية كلها . . فقد كان دعاة المسلمين يريدون أن يعرضوا الإسلام على الأمم . . فيشرحوا الدين الجديد للناس . . وبعد إبلاغهم بالدين الجديد والحجج التى نزل بها القرآن . . بعد ذلك من شاء آمن . . ومن لم يشأ ظل على دينه . . وهكذا كان المسلمون يطالبون بحرية الرأى . . وحرية العقيدة وأن يعرضوا الإسلام على الناس . . ومن له حجة ـ ولله الحجة البالغة ـ فليتقدم . . ثم بعد ذلك يترك حرية العقيدة لكل إنسان .

ولكن حكام هذه الدول . قتلوا دعاة المسلمين . . ومنعوا المسلمين من أن يعرضوا دينهم على الناس . . وصادروا حرية الرأى وحرية العقيدة . . محاولين فرض دين الكفر . . وحملوا السيف ليمنعوا الإسلام من أن يصل إلى قلوب وآذان البشر . . وكان لابد دفاعا عن حرية الرأى والعقيدة أن يحمل المسلمون السيف . . ليضمنوا للبشرية حرية الرأى . . وحرية العقيدة . . ويخلصوها من جبروت فرض الكفر والالحاد على الناس بالقوة . . وبعد أن وصلوا إلى الموقف الذى يستطيعون فيه ابلاغ تعاليم الإسلام للناس . . تركوا السيف وألقوا به بعيدا . . وبدأوا فى شرح تعاليم الدين . . ثم تركوا بعد ذلك كل إنسان حرا فى أن يدخل الإسلام أو يبقى على دينه . . فمن دخل الإسلام كان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم بلا تمييز ، ومن بقى على دينه كانت له حرية العقيدة يحميها المسلمون .

لماذا العداء ؟

إذن فالرسل حين استشهدت بالله . . قالت ما علينا إلا البلاغ المبين . . أى أن الله سبحانه وتعالى كلفنا بأن نبلغكم منهجه . . فمتى أبلغناكم هذا المنهج . . نكون قد أدينا رسالة الله . . فالله سبحانه وتعالى هو الذى يحاسبكم . . ولكن هذا الكلام لا يعجب السادة والمترفين . . الذين يريدون أن تكون العزة فى الدنيا لهم قهرا . . بل إنه يؤرقهم . . لماذا ؟ لأنهم يحسون فى داخلهم أن الرسل سيجذبون الناس بمنهج الله . . وأن الإيمان الفطرى للنفس البشرية . . يدفع هذه النفس إلى منهج الله . . وتحس إن هى اتبعته بانسجام مع الكون ، وبالراحة والطمأنينة والسلام داخل النفس . . كما أن هناك داخل نفس كل كافر . . ما يجعله يحس أن المؤمن أفضل منه . . فهو يحاول أن يؤذيه . . ويتعمد أن يسخر منه . . وكلما رآه يحاول أن يهينه . . وما هذه المحاولات كلها . . إلا لأن شيئا داخله يجعله غير منسجم مع هذا الكون . . وهو يريد أن يخرج المؤمن من إيمانه ليصبح الاثنان سواء .

وكان المفروض عندما أشهد الرسل وقالوا .. ما علينا إلا البلاغ المبين .. أى البلاغ الظاهر .. المؤيد بالحجة .. كان المفروض أن يتركوهم وشأنهم .. ولكنهم أبوا ذلك وأرادوا أن يتعرضوا للرسل بالايذاء .. ولكن الرسل لم يجبروهم على شيء قهرا .. فقالوا « إنا تطيرنا بكم » .. أى إنا قد تشاءمنا من وجودكم فى هذه القرية .. فدعوتكم للإيمان قد أفسدت الناس علينا .. وجعلتهم بعد أن كانوا خاضعين لنا خضوعا كاملا .. ينظرون إلينا على أننا متساوين معهم .. وهذا مالا نريده ولا نسمح به .. ثم ازداد هؤلاء الكفار فى بغيهم على الرسل فقالوا لهم « إن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم » .. أى أنهم أرادوا من الرسل أن يتركوا الدعوة لدين الله .. وأن يتركوا هذه الدعوة وينضموا إليهم كما عرضوا على رسول الله وعرضوا على عمه أبى طالب أن أراد مالا جمعنا له المال . وإن أراد ملكا ملكناه علينا .. محاولين بذلك أن يغروه لترك الرسالة .. والانضمام معهم إلى موكب الكفر .

وهكذا بدأ أصحاب القرية العداء .. وطالبوا رسل الله أن يتركوا الدعوة .. فلما فشلوا فى اغرائهم .. قالوا .. إذا لم تتركوا الدعوة للدين فأننا سنقتلكم رجما أو نعذبكم عذابا شديدا حتى تتركوه .. وهكذا عندما فشل الاغراء لجأ الكفار إلى التهديد .. بأن حاولوا أن يجعلوا الرسل يتركون الدعوة .. أو يتعرضون لايذاء شديد .. وبذلك يكون العداء قد بدأ مع الكفار .. ويكونون بذلك هم الذين اتخذوا الخطوة الأولى فى العداوة لله .. وهم الذين بدأوا فى محاربة دين الله الذى لم يحاول أحد أن يفرضه عليهم .. ويكونون بذلك قد استحقوا عدلا عذاب الله ، لأنهم هم الذين بدأوا العداوة .. وبدأوا ايذاء الرسل الذين يدعون إلى الهداية وإلى الصراط المستقيم .. ورد الرسل فقالوا « طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون » .. أى أن هذا التشاؤم الذى تحملونه لنا هو من عند أنفسكم .. هو من ذاتكم .. فأنتم قوم تريدون أن تسرفوا فى الأرض .. وأن تبغوا وأن تأخذوا حقوق غيركم غصبا وبالقهر .. فإذا سمعتم كلمة العدل ضاقت بها نفوسكم .. وملأها التشاؤم .. لأنها تمثل بداية النهاية

بالنسبة للظلم الذى تحاولون أن تفرضوه على الناس . . وأن تجعلوه هو دستور الحياة . . بينما الله سبحانه وتعالى قد جعل دستور الحياة هو العدل .

والاسراف هنا هو إعطاء النفس البشرية كل شهواتها واطلاق العنان لها . . لترتكب ما تريد وتشتهى دون ضابط من عدل أو احترام لحقوق الناس . . والله سبحانه وتعالى فى منهجه قال افعل ولا تفعل . . وفى قوله لا تفعل . . فقد قيد النفس البشرية من أن ترتكب ما تفسد به الحياة فى الكون . . وأن تعيش فى الحدود التى تضمن عدالة للجميع . ذلك أننا كلنا عبيد لله . . والله سبحانه وتعالى . . له عطاء ربوبية يعطيه لنا جميعا . . وهو لا يقبل العدوان إلا ردا للعدوان . . ولا يقبل الاعتداء بغير الحق . . ولكن النفس البشرية بطبيعتها تكره القيود وهى تريد أن تنطلق فى شهواتها وتسرف فيها دون ما مراعاة لحق . . وهذا الاسراف على النفس وليس لها . . لماذا ؟ لأنها قد أخذت نفعا عاجلا . . ولم تنتبه إلى الجزاء الذى ينتظرها فى الآخرة . . ذلك الجزاء الذى يؤدى بها إلى الهلاك . . ومن هنا فهى لم تقدم خيرا لنفسها . . بل تقدم شرا . . هكذا كان هذا الشر عليها وليس لها . . لأنها وإن حققت نفعا وقتيا فقد كسبت بذلك عذابا أبديا . . والعجيب أننا فى أمور الدنيا نحاول أن نعمل من أجل ما نعتقد انه نفع قادم . . فكل منا يرسل أولاده فى مرحلة طويلة إلى المدرسة ثم إلى الجامعة ويظل يسهر عليهم ويضنيهم فى المذاكرة ليحصلوا على درجة علمية ، ويعتقد أنها ستنفعهم فى المستقبل . . وربما قيد حركته وحركتهم أيضا من أجل ذلك . . ويأتى نفس الإنسان مع يقينه أن حياته ستنتهى وأنه سينقل إلى الحياة الآخرة ، نجده غافلا عن أن يعمل لآخرته ما عمله لدنياه . . وأن يطبق نفس المنطق الذى يطبقه على حياته الدنيوية . . مع أن هناك فارقا كبيرا بين مستقبل سيحققه لسنوات معدودة . . وبين نعيم مقيم سيخلد فيه ولا يموت أبدا . . ولكنها الغفلة التى تصيب القلب البشرى وتجعله ينظر إلى ما هو عاجل . . وإلى ما تقدمه له الدنيا . . وينسى ما هو قادم . . وهو لقاء الله فى الآخرة . . وتلك الغفلة التى

تصيب القلوب ، سببها البعد عن منهج الله . . ولو أن كلا منا تمسك بمنهج الله لربح الدنيا والآخرة .

وإلى هنا نكون قد وصلنا إلى نهاية الجزء الأول من المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى لنفهم معنى مواكب الرسل من بداية الخلق حتى نهايته . . ونكون قد وصلنا إلى أن الله سبحانه وتعالى يريد بهذا المثل أن يخبرنا بأنه أرسل أكثر من رسول ليزيح الغفلة عن قلوب الناس . . ويظهر ما أخفاه بعض الناس من منهج الله وما نسوه وما حرفوه . . وأن مواكب الرسل وجدت أمامها فى كل قرية أولئك المقاومين للإيمان ، المكذبين برسالات الله . . وأن هؤلاء من الذين يخافون أن ينزع دين جديد نفوذهم فى الدنيا . . وأن يجردهم من ميزات حصلوا عليها بالبغى والعدوان . . وأنهم لما وجدوا الدين الجديد لا يوافق أهواءهم ، ولا يتمشى مع نزواتهم . . ولا يعطيهم السيادة . . بدأوا فى حربه . . فقالوا إن الله لم ينزل شيئا . . وأن ذلك قول بشر . . ثم تمادوا بعد ذلك فى تكذيبهم للدين إلى محاولتهم اغراء الرسل بأن يتركوا الدعوة . . فلما فشل الأعداء . . بدأوا هم بالعدوان وبالايذاء . . فكان عقاب الله عدلا . . حيث أنهم هم الذين بدأوا .

ثم يضرب الله بعد ذلك مثلا لمواكب الإيمان التى جاءت فى فترات بين الرسل وبعد انتهاء الرسالات السماوية . . وكيف أن هذه المواكب ستستمر إلىٰ يوم القيامة ماذا فعل الدعاة إلى منهج الله . . واتباع ما جاء به الرسل . . وماذا فعل الكافرون ليواجهوا هذه المواكب . . وهذا هو موضوع الفصل القادم .

حديث قدســـي

لما خلق الله آدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة . وجعل بين عين كل إنسان منهم وميضا من نور . ثم عرضهم على آدم . فقال أى رب ، من هؤلاء ، قال هؤلاء ذريتك . فرأى رجلا منهم أعجبه بياض ما بين عينيه ، فقال أى رب . من هذا ، قال هذا رجل من آخر الأمم يقال له داود . فقال رب : كم جعلت عمره . قال ستين سنة ، قال أى رب زده من عمرى أربعين سنة . فلما قضى عمر آدم جاءه ملك الموت . فقال أو لم يبق من عمرى أربعون سنة ، قال أو لم تعطها ابنك داود ، قال فجحد آدم . فجحدت ذريته . نسى فنسيت ذريته . وخطىء آدم فخطئت ذريته .



الفصل الثالث

مواكب الإيمان



مواكب الايمـــان

مواكب الإيمان ضرب الله لها أكثر من مثل وأكثر من قصة فى القرآن الكريم . . كل تناول جانبا من جوانب الإيمان . . ولا يمكننا أن نستعرضها جميعا فى فصل واحد . . بل هى ستأتى تباعا خلال الفصول القادمة .

على أننا إذا تعرضنا هنا لمواكب الإيمان . . فإننا سنتعرض للأمثال التى ضربها الله لمواكب الإيمان فى عهد الرسل . . والتى ضربها الله لمواكب الإيمان فى الفترات التى بين الرسالات . . وللمَثَل الذى أعطاه الله عن المؤمنين لأهل الكتاب من اليهود والنصارى .

حينما نبدأ بمواكب الإيمان نكمل الـمَثَل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى فى سورة يس :

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ (٢٠) ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَالِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ (٢٧) ﴾

هنا مثل عن مواكب الإيمان فى عهد الرسول . . فالذين يؤمنون برسالة الرسل وبالدين . . لا يقفون عادة عند حد الإيمان . . بل يكونون دعاة له . . ويحاولون أن يجذبوا غيرهم إلى الهداية . . وأن يجادلوا الكفار بالحجة . . عسى أن يؤمنوا

بالدين . . أى أنهم لا يقفون من مواقف الكفر موقف المتفرج . . ولا هم يتركون الرسول وحده يدعو . . بل هم موكب إيمانى مؤيد وداع لما جاء به الرسول . . وهذا الموكب يعانى من أذى الكفار كما يعانى الرسل . . ويضطهدون ويعذبون .

على أننا نلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾

ذلك أن مواكب الإيمان سواء كانت من الرسل أو من أولئك الذين آمنوا بالدعوة وصدقوا بها دائما تسعى لعرض الإيمان على غير المؤمن وشرحه له . . تلك هى سمات المؤمنين .

فالإنسان المؤمن يريد دائما أن يجذب غيره إلى الإيمان . . أولا لأن فى قلبه حب الله . . وهذا الحب يجعله يريد أن يلفت الدنيا كلها إلى الإيمان بالخالق . . وثانيا لأن فى قلبه الخير . . ومادام الخير فى قلبه . . فهو يريده للناس جميعا . . وهل هناك خير من الفوز العظيم الذى يفوز به الإنسان فى الآخرة . . إن المؤمن يعرف يقينا الجزاء والحساب . . وما فى قلبه من خير . . يجعله يريد للناس جميعا أن ينجو من العذاب . . ويفوزوا بخير الدنيا والآخرة . . وحبه لله يجعله يريد الدنيا كلها أن تشاركه هذا الحب العظيم .

وفى هذا يلفتنا الله فى أكثر من مكان لهذا السلوك الإيمانى . فيقول فى سورة الأعراف :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

والحوار هنا بين موكب الإيمان وبين الكافرين . . والكفار يعاتبون المؤمنين فى سعيهم الإيمانى . . ويوجهون إليهم اللوم ويقولون : « لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا » . . وكأنما يستكثر الكفار على المؤمنين محاولاتهم المستمرة لهدايتهم إلى الصراط المستقيم . . ولكن هذه هى طبيعة موكب الإيمان .

وحتى لا يحاسب الله المؤمنين يوم القيامة أنهم شهدوا مواكب الكفر دون أن يعظوهم أو يذكروهم بالله .

وهذه التذكرة هى ثواب للمؤمن حتى ولو لم يهتد الكافر . . وكأنما المؤمن يتصرف من منطلق إيمانى . . وبذلك تكون الرسالة قد بلغت على أيدى الرسل . . واستمرت بمواكب الإيمان . . حتى لا يأتى أحد يوم القيامة ويجادل الله فى أنه لم يعلم . . أو لم يبلغ . . فإذا اهتدى الكفار . . كان هناك أجران . . أجر لبيان الطريق المستقيم . . واستمرار البلاغ عن الله لعباده عن طريق الموكب الإيمانى . . وأجر على من اهتدى من غير المؤمنين ودخل فى الإيمان . . ثم يقول سبحانه وتعالى فى سورة الرعد :

﴿ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَـدَى ٱلنَّـاسَ جَمِيعًا ﴾

أى أنه رغم علم المؤمنين بأن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يهدى الناس جميعا ويخضعهم له . . مع علمهم بهذه الحقيقة . . فإنهم يظلون مستمرين فى موكبهم الإيمانى . . عسى الله إن شاء أن يجعل الهداية على أيديهم . . ومهما بلغ الكفر فإن المؤمن لا ييأس أبدا . . بل يظل يدعو للمبدأ الإيمانى وهو الذى يسعى . . وهو الذى يحث الناس على اتباع منهج الرسل وعلى طاعة الله . . فهذا

مواكب الايمــان

الموكب الإيمانى لا ينتهى أبدا مصداقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (الخير فى وفى أمتى إلى يوم القيامة)

موكب الإيمان مستمر

الله يريد فى هذا المثل أن يفهمنا أن موكب الإيمان مستمر .. وأن المؤمنين يسعون دائما إلى تذكير غيرهم بمنهج الله وحثهم على اتباعه .. وهو يضرب لنا هذا المثل لأن الحياة قصيرة قد لا نستوعب نحن ما يحدث فيها .. ولذلك يريد أن يفهمنا أن موكب الإيمان مستمر فى الدنيا دائما .. ثم يمضى المثل الذى ضربه الله .

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة يس)

هنا يريد الله أن يلفتنا إلى حقيقتين هامتين فى موكب الإيمان والرسالة ..

الحقيقة الأولى أن هؤلاء الناس يعيشون حياة شاقة فى اصطدامهم بمن يحاولون استغلال المجتمع الإنسانى والافساد فى الأرض .. وفى نفس الوقت فإنهم لا يحصلون على أجر دنيوى .. فالرسل لا يطلبون من الناس مالا .. ولا يطلبون أن يعيشوا فى قصور .. ولا يطلبون أن يعيشوا فى حياة الثراء والترف .. بل هم لا يحصلون على ميزات كثيرة يتمتع بها عباد الله غيرهم .. وهم مثلا لا يتركون ميراثا لأهلهم .. بل إنهم كل ما يتركونه يذهب للصدقة ولا يرث أهلهم شيئا .. وهم فى الزكاة أو أموال الصدقات التى يجمعونها لا يعطون منها أقاربهم ولو كانوا من مستحقى الصدقة .. بل إننى أريد أن أذكر آية كريمة نزلت فى المدينة المنورة .. عندما بدأت غزوات المسلمين ، وبدأت معها الغنائم .. ومع الغنائم التى حصل عليها المسلمون كانت هناك رغبة من

زوجات الرسول فى بعض الغنائم . . وكان هذا إتجاها إلى الدنيا . . وإذا بالقرآن ينزل :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

سورة الأحزاب

وهكذا حددت هذه الآية الكريمة أن متاع الدنيا من فاخر ثياب ومال وغنائم وكل ما تقدمه الدنيا من زينة هو ليس لزوجات رسول الله . . حتى لا يكون هناك مطمع دنيوى .

إذن فالرسول لا يطلب أجرا ممن آمن . . وإنما أجره من الله . . وهو لم يطلب مالا ليبنى به قصورا ويحيط نفسه بمباهج العظمة . وهو لا يعطى أهله ولا أقاربه مالا أو فائدة باستغلال النفوذ ، إلى آخر ما يحدث بالنسبة للمناهج الدنيوية . . كل هذا لا يتم بالنسبة للرسل . . ولو تم لانحرف المنهج . . ولكان عند الناس عذر فى عدم الإيمان ، لأنه يحقق فائدة دنيوية يسعى إليها غير المؤمن . . ولكن كون الرسالات هى مشقة يتحملها الرسول دون أن يطلب أجرا من أحد من المؤمنين . . أو يتميز عليهم . . أو يطالبهم بما لا يفعل . . وبما لا يلتزم هو به . . ومادام هو ملتزما التزاما تاما بالمنهج . . ومادام لا يستفيد من هذا يكون ذلك أدعى لأن نتبعه .

ولنسأل أنفسنا إذا كان هذا الرجل لا يتلقى منهجا من السماء . . فما هى فائدته فى كل المشقات التى يتحملها . . وفى كل الأذى الذى يقع عليه . .

فلو كان هناك عقل . . لكان هناك اتباع للرسول الذى جاء بمنهج السماء . . ولا يريد علوا فى الأرض ولا ثراء ولا نفوذا .

إذن فموكب الإيمان فى دعوته إنما يتخذ من الرسل قدوة . . ويقول للناس اتبعوا من لا يسألكم أجرا ، ولا يريد أن يأخذ من أموالكم ليزيد هو فى ماله . . ولا يحقق بواسطتكم جاها فى الدنيا . . وهو فى نفس الوقت أكثركم التزاما بالمنهج الذى يدعو إليه . . لا ينهاكم ثم يفعل هو .

قمة الحجة الإيمانية

ثم يمضى موكب الإيمان بعد ذلك « **ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون** » . . وهنا يأتى السؤال بقمة الحجة الإيمانية . . وهو أى عذر لى أو حجة فى ألا أعبد الذى خلقنى . . والذى سأعود إليه مرة أخرى ليحاسبنى ويجزينى أجر إيمانى وعملى . . والحجة هنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق . . وتلك حجة لا يستطيع أحد أن يجادل فيها . . الإنسان لم يخلق نفسه . . ولم يقل أحد إلا الله أنه هو الخالق . . ومن هنا فإن قضية الخلق محسومة لله سبحانه وتعالى . . لم يدعها غيره . . والذى أخبرنا عنها هو الله وحده . . إذن ما هو أساس عدم العبادة مادامت القضية محسومة وواضحة . . ولماذا المجادلة . . « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون » . . لا هذا ولا ذاك . . ومع ذلك فإن الإنسان يبتعد عن هذه القضية محاولا أن يجادل فيها بأكثر من جدال . . ومادام الله هو الذى خلق والقضية محسومة . . ألا يستطيع الخالق سبحانه وتعالى أن يعيد خلقه مرة أخرى ويحشرهم إليه يوم القيامة .

إذا كنت أنا قد صنعت شيئا . . فهل لا أستطيع أن أعيد صناعته . . بالعكس فى المرة الثانية يكون أسهل من المرة الأولى بالنسبة للإنسان على الأقل . . فقد تحتاج فى المرة الأولى إلى ابتكار ولمسات . . ولكنك فى المرة الثانية

إذا قيل لك أعد صناعة نفس الشيء تستطيع أن تعيده أسهل وأيسر . . ولكن الله سبحانه وتعالى ليس عنده سهل ولا صعب . . فإذا كانت قضية الخلق محسومة . . فكيف تكون قضية إعادة الخلق فيها جدل . . بينما هى بالنسبة لقدراتنا نحن أسهل .

قضية البعث

ولكن الكفار الذين قد لا يجدون حجة فى المجادلة فى قضية الخلق لأنها كما قلنا محسومة . . يجادلون فى قضية البعث . . ولقد جاء رجل يقال له العاصى ابن وائل ، وأخذ عظمة قديمة من البطحاء وفركها بيديه حتى صارت ترابا . . ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . أيحيى الله هذا بعد ما ترى . . أى بعد أن صار ترابا . . فقال رسول الله . . نعم يبعث الله هذا . . ويميتك الله ثم يحييك . . ثم يدخلك نار جهنم . . ونزلت الآية الكريمة فى سورة يس :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾

إذن الذين يجادلون فى البعث . . إنما حجتهم داحضة . . لأن الله سبحانه وتعالى قد خلق أول مرة . . وهو يستطيع أن يعيد خلقه . . أو أن يعيد ما خلقه مرة أخرى . . وذلك أسهل .

فموكب الإيمان عندما يأتى يذكر الناس بهذه الحقائق . . وهى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقهم . . وهو قادر مادام قد خلق على أن يعيدهم مرة أخرى . . ولو أنهم فكروا قليلا لوصلوا إلى هذه الحقيقة . . ولكن من نقائص العقل البشرى أنه يأتى إلى من هم دون الله ليتخذ منهم آلهة . . ولو أن هذا

العقل كان يفكر التفكير السليم .. لما ترك الأعلى ليتخذ إلها ممن هم دونه .. فلا يقبل عقلا ولا منطقا أن أترك القوة التى ليس فوقها قوة .. والقدرة التى ليس فوقها قدرة وآتى إلى من هم أقل قدرة لأعبدهم .. أو آتى لمخلوق مثله لأتخذه إلها .. ولكن الذى يحدث أن النفس البشرية لها شهوات .. وهى تريد أن تنطلق بهذه الشهوات دون أن يكون هناك قيود تحدها .. والله سبحانه وتعالى قد خلقنا جميعا .. وجعل لنا حقوقا متساوية .. فإذا جاء هوى النفس يطلب ما هو حق للغير جاء عدل الله وقال لا .. وحينئذ يبحث هوى النفس عمن يبيح له ذلك .. فيخترع آلهة .. أو يتصور آلهة تبيح له شهوات نفسه .. ومن هنا فهو يريد أن يشكل إلهه على هواه .. فيتخذ أحجارا أو أسماء أو أشياء يسميها هو .. ولا وجود لها .. ويضع لها هو المنهج الذى تمليه عليه نفسه .. وفى هذه الحالة يكون الإنسان قد ألغى عقله .. وحاد عن الحق .

الجدل الإيمانى

وهنا يأتى الجدل الإيمانى ليرد على القضية من كل جوانبها .. بعد أن بين أن أى إله يتخذ هو من دون الله .. لأن الله وحده هو الذى خلق وأوجد .. وكل إله من دون الله لم يخلق شيئا .. ولم يوجد شيئا .. يأتى بعد ذلك إلى حجتهم .. ويقول هب أنكم لا تؤمنون بالبعث .. ولا بأنكم ستعودون مرة أخرى لتحاسبوا .. هب أن ذلك هو ما فى عقولكم .. أفتتخذون آلهة من دون الله .. لماذا ؟ للحياة الدنيا كما تقولون .. سنمضى معكم فى هذا .. هؤلاء الآلهة الذين اتخذتموهم من دون الله ليدفعوا عنكم الضر ويحفظوكم فى الحياة الدنيا .. هل هم قادرون على ذلك ؟ فيقول موكب الإيمان :

﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة يس آية ٢٣)

أى أن هؤلاء الآلهة الذين اتخذتموهم فى الدنيا وحدها عاجزون حتى عن هذه المهمة . . فهم إذا أرادنى الله بضر وهو خالقى . . ويجرى على قدره . . لا يستطيعون ولا يملكون دفع الضر عنى . . وحتى ما تدعونه من أنكم أخذتم هذه الآلهة لتشفع لكم عند الله سبحانه وتعالى . . فالله لا يقبل شفاعتها . . وبذلك فهى عاجزة تماما عن انقاذى من ضر أرادنى الله به . . أو التشفع لى عند الله ليذهب الضر عنى . . إذن لا هى أفادتنى فى منع الضر . . ولا كانت واسطة لى فى شىء .

وهكذا جاء الرد على كل الجوانب . . فإذا كان هناك إيمان بالدنيا والآخرة . . فالله هو الذى خلقنى وهو قادر على أن يرجعنى ليحاسبنى . . فلابد أن أؤدى له حق العبادة . . وإذا كنت أريد الدنيا وحدها ولا أصدق بالآخرة . . فحتى فى هذه الحالة فإن الآلهة التى أتخذتها من دون الله غير قادرة على توفير الحماية لى فى الحياة الدنيا . . وانقاذى من ضر أرادنى الله به . . بل وأكثر من ذلك هى عاجزة على أن تشفع لى عند الله .

عندما نصل إلى هذه النتيجة . . نكون قد وصلنا إلى أن كل من يعبد غير الله هو فى ضلال مبين . . أى ابتعد عن الطريق . . وضل الوصول إلى غايته . . فلا هو عمل للآخرة . . ولا هو حقق لنفسه فى الدنيا ما يحميه من غضب الله إن أراد به سوءا . . فكأنما خسر الاثنين معا . . الدنيا والآخرة . . ولذلك فإن الله وهو يضرب المثل بعد أن ساق الحجج يقول :

﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي

رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

الايذاء والعنف فى مواجهة مواكب الإيمان

الذى حدث أن موكب الكفر لم يجد لديه حجة فى أن يرد . . أو أن يقول شيئا ذلك أن كل الحجج التى جاءت كانت دامغة . . فلم يكن هناك إلا الايذاء والقتل . . لأن الإنسان حين يفقد حجته يلجأ إلى العنف . . فطالما هو يملك الحجة فيستطيع أن يجادل . ولا يلجأ إلى العنف أبدا مادام قويا بحجته وبرهانه . . إنما ذلك الذى يلجأ إلى العنف فهو ضعيف الحجة . . ولذلك فإن مواكب الكفر تلجأ دائما إلى الايذاء والعنف فى مواجهة مواكب الإيمان . . وتحاربهم بكل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة . . مادام قد فقد المنطق وضاعت حجته . . ولكن مصير أهل الإيمان دائما إلى الجنة . . يجزيهم ربهم على عملهم . . وعلى دعوتهم . . ويبقى الخير فى قلوبهم حتى بعد ايذاء الكفار لهم . . ذلك أنهم يحسون أن هؤلاء الكفار قد خسروا خسرانا مبينا . . ويتمنون لو أنهم يصلون إلى حقيقة الإيمان وحقيقة الكون لذلك يقول الرجل الصالح :

﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة يس)

وهنا لابد أن نلتفت إلى قول الله سبحانه وتعالى « بما غفر لى ربى » وقوله تعالى على لسان المؤمنين الذين حاربوا مع داود ضد جالوت :

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ذلك أن الله يريد أن يعلمنا أن باب التوبة مفتوح دائما . . وأن الإنسان المؤمن إذا صدق إيمانه . . وصدق عمله من أجل الله . . فإن الله يتجاوز عن سيئاته ويغفر له . . ذلك حتى نحس جميعا أن الذنب لا يقف عقبة أمام حسن الإيمان . . مادام الإنسان قد ارتكبه بجهالة ثم تاب عنه توبة حقيقية ثم يقول الله :

﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة يس آية ٢٨)

والله هنا يريد بعد أن أخبرنا بموقف الإيمان وموقف الكافرين . . وكيف كذبوا الرسل أولا . . وبدأوا هم بالعداوة . . ثم وقفوا هذا الموقف المعادى أمام مواكب الإيمان التى جاءت تحثهم على اتباع المنهج . . يريد الله سبحانه وتعالى أن يخبرنا أن هؤلاء الكفار ليس لهم قيمة . . ولا قوة . . ولا قدرة . . وأنهم حتى لا يستحقون أن تنزل إليهم جند من السماء لتقضى عليهم . . بل إن الله سبحانه وتعالى لم يكن منزل هذه الجند لأن هؤلاء لا يساوون شيئا . . وهو إن تركهم فى غيهم فى الدنيا فليس بذلك مرجعه إلى أنه غير قادر عليهم . . وليس مرجعه إلى أنهم معجزون فى الأرض . . أو يساوون شيئا أمام قدرة الله . . بل مرجعه وأساسه إلى أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان وأعطاه حرية الاختيار . . فى أن يؤمن أو لا يؤمن . . فإن الله سبحانه وتعالى وهذه مشيئته يترك الكافر يجادل ويكابر . . وينذره ويرسل إليه الرسل ومواكب الإيمان . . لا لأنه لا يقدر عليه . . ولكن لأنه تركه مختارا . . ويوم يأتى أجله أو ينتهى عمره . . فهو لا يساوى عند الله شيئا ويستطيع أن يسلبه الحياة فى لحظة . . أو فى أقل من لحظة .

أصحاب الكهف

على أن الله سبحانه وتعالى ضرب مثلا لموكب إيمانى آخر فى سورة الكهف . . وصورة الموكب الإيمانى هنا تختلف . . وهى تمثل عصرا انتشر فيه الكفر . . قلة

مؤمنة لا تدرى ماذا تفعل أمام بطش الكافرين . . وهنا يعطينا الله المثل ليكمل بذلك موكب من مواكب الإيمان .

وقبل أن نبدأ الحديث أحب أن أقول . . إن كل الأمثال التى تضرب فى القرآن . . قد أخفى الله سبحانه وتعالى حقيقة أبطالها . . لأنها تحدث وتتكرر فى كل عصر . . والخلاف الذى يحدث حول من هم أبطال هذا المثل أو هذه القصة أو فى أى عصر حدثت . . هو خلاف لا يفيد القضية . . فالمفروض بدلا من أن يجرنا هذا الخلاف إلى متاهات . . أن نلتفت إلى الحكمة التى أرادها الله سبحانه وتعالى ونتدبر فيها . . فذلك هو المقصود . . وهو الأساس .

قصة أهل الكهف . . هى قصة فتية آمنوا بربهم . . أى فتية ؟ كل فتية آمنوا بربهم . . قال الله :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا (١٢) نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى (١٣) ﴾

(سورة الكهف)

هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم الله هدى . . إنما هم يمثلون المنهج الإيمانى واستمراريته . . الله قد ضرب لنا المثل فى أصحاب القرية فى منهج

إيمانى . . يجادل ويواجه . . وهذا هو أساس المنهج الإيمانى . . ولكن الله فى هذا المثل فى سورة أهل الكهف . . بأنهم لم يواجهوا ولم يستمروا . . بل هربوا بدينهم . . أو فروا بدينهم بعيدا عن الكفار . . فهل فى هذا تناقض . . كيف يبقى الإنسان مرة يجادل . . ثم يفر بدينه مرة أخرى !

نقول لمن يدعى ذلك أنك لم تفهم الحكمة . . فالحكمة فى المثلين واحدة وإن اختلف الأسلوب . . فالله سبحانه وتعالى يريد أن يبقى المنهج الإيمانى مواجها الكافرين . . مجادلا لهم حتى آخر لحظة . . ولكنه فى نفس الوقت لا يريد من المنهج الإيمانى إذا واجه قوة ستقضى عليه . . أن يستسلم ويتركها ليقضى عليها . . إنما عليه أن يفر بدينه إلى مكان آخر . . ثم بعد ذلك يعود مرة أخرى . . بعد أن يكون قد قوى واستطاع أن يواجه . . يعود مرة أخرى قويا إلى المواجهة . . وهو لا يريد لمن يدعون لدينه أن يهربوا من المجتمع . . أو أن يعتزلوا . . بل لابد أن يبقوا . . وأن يقولوا كلمة الحق . . وأن تظل الدعوة مستمرة . ولذلك إذا قرأنا قصة أهل الكهف بعناية . . نجد أن الله سبحانه وتعالى قد حدد شرطين لا ثالث لهما . . ليفر الإنسان بدينه إلى مكان آخر ويبدأ الدعوة من جديد . . الشرطان هما :

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠) ﴾

(سورة الكهف)

إذن فالأساس هو ما حدده القرآن الكريم فى هذه السورة . . فقد كان الفتية المؤمنون إذا بقوا . . فإنهم سيواجهون أحد أمرين . . أما أن يرجموهم علنا أمام الناس . . ويقتلوهم على رؤوس الاشهاد . . وفى هذه الحالة ينتهى موكب الإيمان من هذه البلدة إلى فترة محدودة . . وإما أن يجبروهم علنا على أن يعودوا إلى عبادة الأصنام . . وفى هذه الحالة . . ربما يكون هناك عدد من المؤمنين الذين

يكتمون إيمانهم . . فيشهدون هؤلاء الفتية وقد ارتدوا عن الإيمان فيفتنون بهم ويرتدون هم أيضا . . ويتوقف موكب الإيمان فى هذه البلدة إلى حين .

إذن فالأساس هنا هو استمرارية موكب الإيمان أو المحافظة على هذه الإستمرارية . . هذا بالنسبة لمن يدعون إلى تطبيق المنهج . . أما بالنسبة لله سبحانه وتعالى . . فالله يستطيع أن ينصر دينه وكلمته . . وهو ليس محتاجا إلى أحد . . وهذا ما سنبينه . . إنما الأساس هو أن الهجرة أو الفرار بالدين . . لا يكون إلا لهذين السببين اللذين حددهما الله . . وأن بقاء الدعاة فى المجتمع . . ماداموا غير مهددين بالقتل . . أو مهددين بأن يكرهوا علنا على الكفر . . أقول إن بقاءهم فى هذه الحالة واجب إيمانى . . وأنهم لابد أن يبقوا ويظلوا يؤدون واجبهم كدعاة للحق .

هؤلاء الفتية وجدوا أن بقاءهم فى المجتمع الكافر سيعرضهم لأحد شيئين . . إما أن يقتلوا ويحرم المنهج ممن يدعون إليه . . وفى هذه الحالة فإن قتلهم لا يفيد المنهج . . لأن المنهج محتاج لموكب إيمانى . . وإما أن يكرهوا على الكفر فيصبحوا فتنة للذين آمنوا . . ودعوة إلى الكفر والالحاد . . وفى هذه الحالة أيضا يحرم المنهج الإيمانى من حاملين له ومؤمنين به ودعاة له . . وفى هذه الحالة لابد أن يفروا إلى مكان ليعودوا مرة أخرى وهم أكثر قوة .

وكانت أول مرحلة لهؤلاء الفتية هو أن يلتجئوا إلى الكهف حتى يتدبروا أمرهم . . ولذلك فهم لم يذهبوا إلى الكهف ليبقوا هناك بقية حياتهم . . أو لكى يناموا أو لكى يعتزلوا المجتمع ويعيشوا هم فى مجتمعهم الخاص . . وإنما الكهف وسيلة للاختفاء نهارا . . ربما ليكملوا رحلتهم ليلا . . أو وسيلة للاختفاء فترة قصيرة حتى يهاجروا من هذا البلد . . بعد أن تهدأ العيون التى تتبعهم . . والتى تريد أن ترجمهم . . أو ترغمهم على الكفر . . فلما دخلوا الكهف ألقى الله

سبحانه وتعالى عليهم النوم .. ولم يكن هذا مقصودا منهم .. بل أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أراده لحكمة .. ولكن التجاءهم للكهف كان المقصود به منهم إبقاء الخميرة الإيمانية .. أو خميرة منهج الإيمان .. ليذهبوا بها إلى مكان آخر يمكن أن تختمر فيه وتنتشر .. لذلك لابد من المؤمن أن يحافظ على حياته .. لأن حياته هى الخميرة لمنهج الإيمان .. وحتى يظل المنهج الإيمانى .. وفرارهم كان من أجل استبقاء حمل المنهج .. وليفروا إلى مكان ينشروا فيه الدعوة .

وتمضى الآية الكريمة :

﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾

وهنا اشارة من الله سبحانه وتعالى إلى الرحمة التى تصيب العبد المؤمن .. والذى يضطهد بسبب إيمانه ودينه .. والمعروف أن الكهف مكان ضيق .. لا يصلح للاقامة إلا فترة قصيرة .. فهو عادة يكون سيىء التهوية وغير صالح للحياة .. ولكن الله سبحانه وتعالى قد حفظ لهم الحياة فى هذا الكهف الضيق سنوات طويلة وهذه اشارة إلى أن ذلك الذى يسلك مسلك الإيمان .. قد يجعل هذا المسلك حياته الدنيوية ضيقة صعبة .. وقد يسلبه ميزات كثيرة من التى يتمتع بها الناس .. ويجعله يعانى .. وهنا تأتى رحمة الله على عبده المؤمن .. إذ يجعل الله سبحانه وتعالى من هذه الحياة الضيقة حياة ميسرة .. ويذهب الضيق الذى أوجده الكفار فى حياة الإنسان المؤمن .. بأن ينشر الله من رحمته على هذه الحياة .. ما يجعل من الضيق فرجا .. ومن العسر يسرا .. ومن الحياة المحدودة جدا حياة واسعة .. ويهيىء الله برحمته مخرجا بالنسبة للخطوات القادمة ..

خرج الفتية إلى الكهف .. وفى هذا المكان الضيق الذى ـ كما قلنا ـ لا يصلح للحياة لفترة طويلة .. جعل الله سبحانه وتعالى برحمته هذا المكان يصلح لهم لما

قالوا :

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا ﴾

إذن فهم رفعوا الأمر من قدراتهم هم عندما فشلوا فى اقناع قومهم بعبادة الله وترك الأصنام التى يعبدونها . . وعندما أحسوا بالتهديد بالرجم أو بالاكراه على الكفر . . رفعوا الأمر إلى قدرات الله فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا .

ماذا حدث بعد ذلك ؟

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾

والله يريد أن يلفتنا إلى أن الصلة التى تؤرق الإنسان فى نومه . . أو تصله بالدنيا فى كل الأوقات . . هى الأذن . . فكل الحواس تنام ماعدا الأذن . . ذلك انك إذا جئت إلى إنسان نائم . . وقربت أصبعك من عينه حتى تكاد تلمسها . . فإنه لا يحس ولا يستيقظ . . وإذا وضعت يدك على يده . . قد لا يستيقظ إذا كان ينام نوما عميقا . . وإذا أطلقت رائحة غريبة فى حجرة فلا يحس بها ولا يستيقظ . . حتى إذا أطلقت غازا ساما . . فقد يستنشقه ويموت وهو نائم دون أن يستيقظ .

ولكنك إذا أحدثت صوتا عاليا بجانب أذنه باستخدام أية آلة تحدث صوتا عاليا . . أو باستخدام كفيك تصفق بهما بجانب أذنه . . أو بالنداء عليه بصوت

عال ، فإنه يهب من نومه مذعورا . بل ان الأذن هى أول حاسة تعمل فى جسم الإنسان عند ولادته .

فالطفل حديث الولادة قد تمضى عليه عدة أيام قبل أن يستطيع أن يستخدم حاسة البصر استخداما سليما . . ولكن حاسة السمع تعمل من أول لحظة فيزعجه الصوت العالى . . والأذن هى أداة الاستدعاء عند البعث . .

إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا كيف نام هؤلاء الفتية تلك السنوات الطويلة دون أن يحسوا . . بأن ضرب الله على آذانهم . . فأصبح النهار بلا ضجيج كالليل فى سكونه تماما . . وحتى إذا وصل أعداؤهم إلى مدخل الكهف وتحدثوا بصوت عال . . فإن ذلك لن يزعجهم ولن يجعلهم يحسون بالخطر . . وربما تصرفوا تصرفا يكشفهم ويعرضهم لايذاء الأعداء . . ولذلك كان الضرب على آذانهم حتى يرقدوا فى سلام تام . . تماما كما ينام الإنسان فى جوف الليل . . حين تهدأ الحركة تماما فلا يسمع صوتا واحدا .

ووفر الله لهم سبحانه وتعالى أسباب الحياة الكونية . . فجعل الشمس تدخل إلى الكهف . . دون أن تصيب أشعتها أجسادهم فتوقظهم حرارتها وشاءت قدرته أن يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال . . ليحفظ أجسادهم من أمراض الرقدة الطويلة . . ومن أن تأكلها الأرض .

ثم جاءت الحكمة فى البعث بعد فترة طويلة من النوم :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا

﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾

(سورة الكهف)

من الواضح هنا أن الفتية المؤمنين قد فقدوا عنصر الزمن . . وعندما أفاقوا من نومهم بعد هذه السنوات الطويلة . . لم يكن هناك شيء في الكهف قد تغير . . وإن كان كل ما في خارج الكهف قد تغير . . ولكنهم لم يشعروا به . . لأن عنصر الزمن لا يحس به الانسان إلا بالمتغيرات . . بمعنى انك إذا جلست في حجرة . . وأقفلت كل منافذها . . وجعلتها ظلاما ليس فيها أي حركة ولا أي أحداث تتم . . ولا صلة لك بالعالم الخارجي . . فأنت لا ترى الشمس حين تشرق أو تغرب . . وليس هناك ساعة تدلك على الزمن . . ولا من يأتيك فإنك تفقد القدرة على الصلة بالزمن . . فالزمن أساسه التغير الذي يتم . . الشمس التي تشرق وتغرب . . مظاهر الكون التي تتأثر بالزمن . . القمر وحركة النجوم . . أي أساسه الحركة . . ومادام الفتية المؤمنون كانوا في سكون تام . . نتيجة أن الله ضرب على آذانهم . . وماداموا قد قاموا فوجدوا الكهف كما هو . . لم يتغير فيه شيء . . فقد خيل لهم أن الزمن لم يتغير . . وأنهم قد لبثوا يوما أو بعض يوم . . ومن هنا فقد كانوا على حذرهم وخوفهم من الكفار . . ولذلك طلبوا من ذلك الذي يأتي إليهم بالطعام ألا يجعل أحدا يشعر بهم حتى لا يرجموهم أو يعيدوهم في ملتهم . . وجعل الله الناس يعثرون عليهم . . فقال :

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ﴾

وكان العثور عليهم له أكثر من حكمة . . فأولا . . تحولت البلدة الكافرة التي كانت تعبد الأوثان إلى بلدة مؤمنة تعبد الله سبحانه وتعالى . . في هذه السنوات

الطوال التى مرت . . تغير الحال تماما . . وانتهى موكب الكفر وزال من البلدة وانتشر موكب الايمان . . وكان فى ذلك حكمة فى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلمس هؤلاء الفتية كيف انتصر موكب الايمان . . وأن الله سبحانه وتعالى قادر على أن ينصر دينه . . وأن هذا الذى تبدل وتغير . . إنما تم وهم نائمون فى الكهف . . وذلك حتى يعلموا أن قدرة الله فوق كل قدرة . . وأنه إذا كان بعض الناس قد وفقهم الله إلى اختيار طريق الايمان . . فإن ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يجزيهم بالجنة . . ويريد أن يتعهم بقدراته فى الآخرة . . وليس ذلك لأن الله محتاج إلى خلقه لينشر دينه أو ليعلى كلمته . . ولكنه غنى بقدرته عن ذلك كله . . وذلك حتى نعرف جميعا . . اننا إذا أخذنا طريق الايمان . . فإن ذلك يكون رحمة من الله بنا . . ورضا من الله عنا . . ولا يكون حاجة من الله إلينا .

وهكذا رأى الفتية المؤمنون وشهدوا موكب الايمان . . وعرفوا أن هدى الله لهم كان من رحمته بهم . . ولم يكن عن حاجة لأحد .

وحكمة أخرى . . أنهم شهدوا بأنفسهم البعث ورأوا كيف أنامهم الله هذه السنوات الطويلة . . فلم يحسوا إلا أنهم قد قضوا يوما أو بعض يوم . . وأن الله سبحانه وتعالى الذى بعثهم فى هذه الدنيا قادر على أن يبعثهم فى الآخرة . . ويستيقنوا برؤيا اليقين بعد أن آمنوا إيمان اليقين . . بأن الساعة قادمة . . وبأن ما آمنوا به هو الحق . . ويعرفوا أنهم اختاروا طريق الحق . . وأنهم فازوا فوزا عظيما .

والحكمة الثالثة . . ليستيقن هؤلاء الذين جاءوا ونشروا الايمان بعد الكفر . بالبعث وبالآخرة . . وبقدرة الله سبحانه وتعالى على بعثهم يوم القيامة . . ويتحول الإيمان بالغيب عندهم إلى رؤيا يقينية شهدوها بأعينهم . . وذلك حتى

يثبت إيمانهم . . وجزاء لهم على أنهم جاءوا ليبدلوا دولة الكفر إلى دار إيمان . . وليعبدوا الله وحده . . بعد أن كان من قبلهم يعبدون الأوثان .

مثل لأهل الكتاب

ثم نأتى بعد ذلك إلى المثل الذى ضربه الله فى القرآن لأهل الكتاب عن المؤمنين . والذى يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الفتح :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾

والله سبحانه وتعالى أراد أن يقول لأهل الكتاب أن هذا الدين يجمع بين الدنيا والآخرة فلا هو معزول عن ماديات الدنيا . . ولا هو معزول عن الروحانيات . . بل هو دين ودنيا . . يأخذ من كل بقدر صلاح المؤمن . . وبقدر المنهج .

ولما كان اليهود قوم ماديون . . يقدسون المادة وحدها . . ويكنزون المال . . ولا يعطون اهتماما إلا لماديات الحياة . . فقد جاء الله لهم بمثل للعبادة فقال :

﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (سورة الفتح آية ١٢٩)

ليقول لأهل التوراة ، إن موكب الإيمان فى الإسلام لا يعتمد على الماديات وحدها . . ولكنه يعطى العبادة لله حقها . . وتراهم دائما فى المساجد يعبدون الله ركوعا وسجودا . . حتى أنهم من كثرة السجود فإن ذلك يظهر على وجوههم علامة بارزة يعرفهم الناس بها عندما يشاهدونهم . . أى أن الموكب الإيمانى فى الإسلام لا ينطلق إلى ماديات الدنيا ، وينسى عبادة الله سبحانه وتعالى . . بـل هو يعطيها حقها تماما .

أما فى الانجيل فحيث تأخذ الروحانية نصيبا كبيرا . . يعطى الله مثلا ماديا للمؤمن كزرع اعتنى به حق عنايته فكبر واشتد عوده وغلظ . . كلما رآه الكفار ورأوا ما هو فيه من حسن عناية وإثمار . . دب فى قلوبهم الغيظ . . وذلك ليؤكد الله سبحانه وتعالى أن الموكب الإيمانى فى الإسلام لا يهمل أمور الدنيا ويتركها ، بل هو يأخذ بأسباب الدنيا والآخرة . . وأن منهج الإيمان فيه ما يؤدى إلى صلاح العبد المؤمن فى دنياه وفى آخرته .

وبذلك تكون أمثال مواكب الايمان التى ضربها الله سبحانه وتعالى . . تؤكد لنا أن موكب الايمان يسعى دائما إلى مواجهة الكفر والالحاد بالحجة والبرهان . . وأن هذا الموكب الإيمانى لا يتوقف أبدا . . وأن عنده مما أعطاه الله من البراهين ما يجعله قادرا على أن يواجه أى مجتمع كافر . . وأن الكفار فى لجوئهم إلى القوة والعنف والقتل فى محاربة الدين الاسلامى . . إنما يفعلون ذلك لأنهم لا يستطيعون مواجهة هذا الدين بالحوار والاقناع . . وأن هؤلاء الكفار ليسوا بمعجزين فى الأرض ولا يساوون عند الله شيئا . . وهو ان كان يتركهم فى غيهم

لأنه كتب على نفسه أن يترك الإنسان مختارا فى أن يؤمن أو يكفر . . وليس لقيمتهم أو لعلو شأنهم . . أو لأنهم يساوون شيئا على الاطلاق .

وأن موكب الإيمان لابد أن يستمر . . وعليه واجب ، هو مواجهة الكافرين والدعوة إلى دين الله . . ولكن إذا حدث أن تمكن الكفر فى بقعة من الأرض . . وكان مصير المؤمنين إما أن يقتلوا أو يرجموا ، فيتوقف موكب الإيمان إلى حين . . أو أن يكرهوا على العودة إلى الكفر علنا وأمام الناس . . حينئذ يحق لهم أن يفروا بدينهم إلى مكان آخر . . على أن يعودوا وهم أكثر قوة . . وأن الله سبحانه وتعالى . . قادر على أن ينصر دينه دون معونة أو حاجة إلى أحد من البشر . . ولكن مواكب الإيمان هى رحمة من الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين ليثيبهم بها فى الآخرة ويدخلهم الجنة .

وأن الله يعلم أن الذين يتخذون طريق الإيمان والدعوة إليه يحاربون من الكفار ومن غير المؤمنين حتى يضيقوا عليهم حياتهم . . وأن الله يفتح لهم من رحمته ما يبدل هذا الضيق فرجا . . ويوجد لهم من السبل ما يعوضهم عن هذه الحرب التى يلاقونها من أعداء الدين . . ثم يثبتهم باليقين . . ويريهم من آياته ما يثبتهم على المنهج . . ويثلج صدورهم بأنهم اختاروا الطريق المستقيم . . وموكب الإيمان لا يترك الدنيا وما فيها . . ولا يترك الآخرة وما أعده الله لها . . بل هو منهج عبادة يعطى لكل حقه . . فالدنيا معبر للآخرة لابد فيها من العمل . . والآخرة خلود لابد أن نعد أنفسنا لها .

وكما أعطى الله الأمثال على مواكب الإيمان . . أعطى الله الأمثال عن الكافرين . . وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الرابع

مَثَلُ الكَافِرِينَ



مَثَـلُ الكافرين

الله سبحانه وتعالى ضرب أمثالا كثيرة فى القرآن الكريم ليوضح بها سلوك
كافرين فى الحياة الدنيا . . وما سيلقونه فى الآخرة . . لبعدهم عن الحق . .
بين بالحجة والمنطق كيف أن الكافرين والمنافقين والمشركين . . وإن كانوا
شتركون فى سلوك واحد . . إلا أن لكل واحد منهم طريقة تفكير مختلفة . .
بين الله بالأمثال التى ضربها كيفية هذا التفكير وعدم القدرة على التمييز . . ولم
قصر الأمثال التى ضربها الله عن الكافرين وغير المؤمنين والمشركين والمنافقين . .
لى سلوكهم وحده . . بل تجاوزت ذلك لتريهم خطأ هذا السلوك وتبين لهم
ضلالة التى يعيشون فيها . . ورغم هذه الأمثال فإنها زادتهم ضلالا . . ولم
تنبهوا لها ولا للحكمة منها .

الأمثال الثلاثة

على أننى سأقدم فى هذا الفصل نماذج لسلوك الكافرين وفكرهم كما بينه
لله . . وفى فصول قادمة . . سأتناول بالتفصيل الأمثال التى تحدى الله بها
لكفار . . وهى أكثر من مثل فى القرآن الكريم .

وقبل أن نبدأ الحديث . . لابد أن نأخذ مثلا عاما . . فالله سبحانه وتعالى فى
سورة إبراهيم يقول :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

وقال الله فى سورة الكهف :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

وقال الله تعالى فى سورة النور :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

وفى هذه الأمثال الثلاثة ينبئنا الله عن مصير أعمال الكافرين . . أو من يكفر بالله ولا يؤمن . . والله فى هذا يريد أن يلفتنا إلى قضية إيمانية هامة . . هى أن أساس العمل الصالح أن يكون مقرونا بالإيمان . . فإن لم يكن مقرونا بالإيمان ذهب عنه صلاحه . . وضاعت قيمته وذهب إلى القصود منه . . والله سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى : « **أنا أغنى الشركاء عن الشرك** »

وهذه نقطة بداية هامة . . لأن بعض الناس يعتقد أنه يستطيع أن يشرك مع الله شركاء فى العمل ثم يأخذ الجزاء من الله . . وأولئك الذين يذهبون إلى الحفلات الخيرية مثلا . . ويعلنون عن أسمائهم ويتباهون أمام الناس بما تبرعوا . . بل يحاول كل منهم أن يزيد على الآخر حتى يقال إنه رجل بر أو رجل احسان . . أو أنه أغنى منه إلى آخر ما يحدث . . هل يحتسب لهؤلاء جميعا وهذ

قصدهم ونياتهم . . هل تحتسب الحسانات لهم من الله . . وهم يقصدون بها غير وجه الله . . الجواب طبعا لا .

ومثل ذلك ما يقال من أن ٢٥٪ من حصيلة سباق الخيل تذهب للخير . . نقول أى خير هذا الذى يأتى بارتكاب معصية . . وهل الله فقير محتاج إلى مال حتى ننفق من معصية أو مما حرم الله . . إن الله سبحانه وتعالى هو الذى يملك خزائن الأرض كلها وهو الذى يرزقنا . . وكل المال الذى فى الأرض هو مال الله سبحانه وتعالى . . فكلنا يخرج من الدنيا ويتركه . . والله هو الذى يرث وحده الأرض وما عليها . . ولذلك يقول الله :

﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحديد)

أى أن المال أصلا ملك لله . . وهو الذى يجعلنا مستخلفين فيه لفترة من الفترات طالت أو قصرت . . ولكمية زادت أو نقصت . . ومن هنا فإن الله غير محتاج لمال حتى ننفق فى وجوه البر من المعاصى ومما حرم الله . . والله طيب لا يقبل إلا طيبا . . ومن هنا فإن لم يكن المال من حلال فإن الله لا يقبله .

هذه قضية لابد أن نفهمها حتى لا تحبط أعمالنا فى الحياة الدنيا . . ولكن هب أن المال من حلال فعلا . . وأن العمل به يقصد به الخير . . ولكن الإيمان بالله غير موجود . . هل يقبل منك هذا العمل ويجازى الناس عليه . . وهل هؤلاء الناس الذين عملوا كما يقولون من أجل الإنسانية . . والذين قد يكون الله كشف على أيديهم دواء نافعا أو اختراعا أفاد الإنسانية . . هل هؤلاء يدخلون الجنة مع عدم إيمانهم . . وهل ما قدموه من عمل للإنسانية يغفر لهم أنهم لم يؤمنوا بالله أو يجعل الله يتجاوز عن ذلك .

اختبار للإيمان البشرى

الجواب طبعا لا . . ذلك أنك فى أى عمل تقوم به . . إنما تطلب الجزاء ممن عملت من أجله . . فأنت مثلا إذا كنت تقوم ببناء عمارة لى . . تطلب الأجر منى . . وإذا قمت لغيرى تطلب الأجر منه . . ولا يعقل أن تقوم بالعمل لإنسان آخر أو لشخص آخر . . ثم تأتى فتطلب منى الجزاء .

والأساس فى الأعمال كلها . . وفى الدنيا كلها . . هو الإيمان . . ذلك لأن الدنيا هى دار اختبار للإيمان . . فيها امتحان يليه امتحان . . منها الابتلاء بالخير . . والابتلاء بالشر . . ومنها الفتنة التى يسقط فيها البعض . . وينجو البعض بإيمانهم منها . . كل هذه . . وكل أحداث الدنيا هى اختبار للإيمان البشرى . . والله غنى عنا جميعا . . لا نزيد فى ملكه شيئا . . ولا ننقص منه شيئا . . ذلك أن الله قد خلق الكون بكل ما فيه من نعم وآيات وخصائص وأسرار . . كشف الله للعقل البشرى بعضا منها . . ومازال هناك ما هو مجهول للبشر . . كل هذا خلقه الله قبل أن يخلقنا نحن . . ولذلك فنحن لا نزيد فى صفات قدرة الله ولا كماله شيئا . . ولا ننقص منها شيئا .

إذن الأجر نأخذه ممن عملنا من أجله . . فإذا كنا قد عملنا من أجل الله ، وإذا كنا قد عملنا وفى قلبنا الله وارضاء الله . . فنحن نأخذ أجرنا من الله . . ونأتى يوم القيامة آمنين .

وإذا كان فى قلبنا غير الله فإن الله يوفينا أجرنا ممن عملنا من أجله . . سواء كان هذا الجزاء خيرا أم شرا . . أما فى الآخرة فليس لنا شىء لأننا لم نعمل من أجل الله . . لذلك شاء عدل الله أن الذين يعملون من أجل الدنيا يوفيهم أجورهم فى الدنيا . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

. . ولذلك نرى أنه من عمل من أجل الإنسانية مثلا تخلده الإنسانية فتقام له المعامل وترصد له الجوائز ويطلق اسمه فى الدنيا كلها . . وهكذا نال جزاءه من نوع ما عمل من أجله . . ومن يعمل من أجل مجموعة من الناس . . فإنهم يرفعونه ويبنون له القصور . . وربما عينوه حاكما عليهم . . ومن هنا فقد نال جزاءه من نفس نوع العمل الذى قام به . . ومن يعمل من أجل الله واليوم الآخر يجد جزاءه عند الله سبحانه وتعالى فى الآخرة . . ذلك هو عدل الله . . وهو الأساس فى الحساب .

الله سبحانه وتعالى يريد أن يفهمنا ذلك فيضرب لنا الأمثال حتى يقرب هذا المعنى من أذهاننا . . وحتى نستطيع أن نستوعبه .

المثل الأول :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

فالله يريد أن يقول لنا إن الذين كفروا وهم لا يؤمنون بى ويكفرون بألوهيتى ، مهما عملوا ومادام الايمان ليس فى قلوبهم فمثل أعمالهم كرماد (والرماد هو التراب المتخلف عن الحريق) . نأتى بهذا الرماد ونضعه فى أى مكان خلوى فى يوم عاصف أى شديد الرياح . . تبلغ فيه الرياح من شدتها قوة العاصفة . . وذلك حتى لا يتبادر إلى أذهاننا أن الرياح ربما تكون شديدة ولكنها فى شدتها قد تترك

شيئا . . ولذلك يصورها الله بالعاصفة التى لا تترك شيئا من الرماد على الاطلاق إلا بعثرته وأضاعته . . فهم أى هؤلاء الكافرين فى أعمالهم مهما قصدوا بها . . إنما هى كالرماد الذى أطاحت به عاصفة . . ومهما كسبوا فهم لا يقدرون على شيء منه . . أى لا يبقى لهم شيء منه . . لماذا . . ؟ . . لأنهم ليس فى قلوبهم الله . . ومن هنا فإنهم لم يبقوا شيئا للآخرة . . ولم يعملوا شيئا يقصدون به وجه الله . . ولذلك ضاعت أعمالهم جميعا كما تضيع حفنة من الرماد فى العاصفة .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة إبراهيم الآية ١٨)

والضلال يأتى من الضلالة . . وهى من ضل الطريق أى ابتعد عن الغاية التى توصله إلى الهدف . . أى أن هؤلاء الناس بعدم إيمانهم وكفرهم . . قد ابتعدوا عن الطريق الذى يجعل الله سبحانه وتعالى يتقبل منهم صالح الأعمال . . ولذلك كان ضلالهم بعيدا . . لأنهم متى ابتعدوا عن الغاية لم يصلوا إلى شيء . . ومهما عملوا وفى قلوبهم ظلام الالحاد والكفر . . فلن يتقبل منهم .

الأخسرون

ثم يأتى الله بمثل ثان فيقول :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ

جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

(سورة الكهف)

يريد الله أن ينبئنا بالأخسرين أعمالا . . واستخدام الله سبحانه وتعالى لكلمة الأخسرين هو استخدام لصيغة المبالغة . . أى أن هناك من هو خاسر . . وهناك من هو أخسر منه . . أى أن هؤلاء الناس ليسوا من الخاسرين فقط بل من الأخسرين الذين لا ينالون شيئا على الاطلاق . . ولا يكسبون شيئا .

. . الذين ضل سعيهم

من هم هؤلاء الناس . . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا . أى أنهم ضلوا عن الطريق فيما يفعلون . . واتخذوا طريقا لا يوصلهم . . وهم فى ضلالهم هذا لا يحسون بأنهم قد بعدوا عن الطريق . . بل يحسبون أنهم يحسنون صنعا ويعملون الخير . . ويحسبون أنهم سيجزون على ذلك بأحسن الجزاء . . ويتفاخرون على الناس بأنهم يفعلون طيبا . . ثم يعرفهم الله سبحانه وتعالى فيقول :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

أى أن هؤلاء الناس كفروا بالله . . وكفروا بآياته . . وكفروا بالآخرة . . ورغم أن آيات الله سبحانه وتعالى واضحة بينة لا يستطيع غيره أن يدعيها لنفسه . . ولا يمكن لعقل أن ينكرها فأمامهم الكون والشمس والقمر والنجوم والأرض والبحار . . وكل ما خلقه الله مما لا يستطيع غير الله أن يدعى خلقه . أمامهم هذه الآيات بينة ظاهرة ، ومع ذلك كفروا بها . . وأمامهم الخلق والبعث

قضيتان محسومتان .. فالذى خلق أول مرة كما قلنا .. يستطيع أن يعيد هذا الخلق .. ورغم هذه الآيات البينات .. فقد كفروا بها وبلقاء الآخرة .. وعملوا وليست فى قلوبهم إلا الدنيا وحدها .. ولذلك فإنهم لا وزن لهم عند الله سبحانه وتعالى يوم القيامة .. لأنهم لم يقدموا شيئا لهذا اليوم حتى يمكن أن يوضع فى ميزان أعمالهم .. وبماذا يجزون فى هذا اليوم .. يجزون بجهنم .. ذلك هو جزاء من يكفر بالله وآياته ورسله .. ولا يكفر فقط وإنما يزداد فى الكفر .. ويستهزىء بالايمان .. ويسخر من المؤمنين .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾

(سورة النور)

وهنا يضرب الله مثلا آخر لأعمال الكافر التى يحسبها طيبة نافعة له : فيقول الله سبحانه وتعالى : أن مثلها كمثل السراب الذى يراه المسافر فى الصحراء عند وقت الظهر وعند اشتداد وهج الشمس ..

وكلنا يعرف السراب الذى يظهر فى الصحراء من انعكاس ضوء الشمس .. أى أن الكافر عمله الذى يحسب أنه سيحسب له وسيجزى عنه .. تماما كالسراب الذى يراه المسافر فى الصحراء عن بعد فى يوم شديد الحر وهو ظمآن يتمنى شربة فيحسبه ماء .. ويسرع إليه وهو ظمآن من شدة الحر .. وعندما يصل إلى مكانه لا يجده شيئا .. أى لا يجد أنه قد كسب شيئا على الاطلاق مما عمل مادام قد كفر بالله .. ولكن المفاجأة التى تذهله .. والتى لم يكن يحسب لها حسابه .. وهو يوم الأهوال .. يبحث عن العمل الطيب الذى اعتقد أنه قد قام به فى الحياة الدنيا .. والذى يظن أنه قد يشفع له فى هذ اليوم .. ولكنه لا يجده شيئا .. ثم يجد الله سبحانه وتعالى الذى لم يؤمن به والذى لم يحسب حساب

لقائه فيوفيه أجره وجزاءه من جنس العمل الذى قدمه لله وهو الكفر به والهزء بآياته ورسله . . فماذا يكون الجزاء فى هذه الساعة . .؟ يكون نار جهنم وبئس المصير . . والله سريع الحساب . أى أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يوفيه حسابه بسرعة لأن الله لا يشغله حساب عبد عن حساب عبد آخر .

الإيمان أساسه تقبل الأعمال

أعتقد أننا فى هذه الحالة نكون قد وصلنا بوضوح إلى أن الإيمان هو أساس تقبل الأعمال . . وأن الله لا يتقبل عملا من كافر . . ولا عملا من مشرك . . وإنما يتقبل العمل الذى يقصد به وجه الله وحده . .

ومن هنا فإن كل قول عن أناس عملوا فى الدنيا وقلوبهم كافرة . . أو قدموا للانسانية وهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . .

كل قول بأن هؤلاء يدخلون الجنة . . هو قول مردود . . وإنما يجزون أعمالهم فى الدنيا بما عملوا . . ولكن الله الذى لم يقصدوه بأعمالهم . . ولا كان فى قلوبهم لا يقيم لهم يوم القيامة وزنا . . ولا ينتظرون منه جزاء . . بل إن الله سبحانه وتعالى شاءت رحمته أن يعطينا مثلا الفرق بين أعمال المؤمن والكافر ليقرب لنا هذا المعنى . . وحيث أن جزاء الله هو غيب عنا لا نستطيع أن ندركه . . فقد أراد الله بهذا المثل أن يقربه إلينا . . حتى نستطيع أن نفهمه ونحسه ، وأن تكون الصورة قريبة من أذهاننا .

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾

مَثَـلُ الكافرين

ثم يقول الله :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فى هذا المثل يعقد الله مقارنة بين الذى ينفق فى سبيل الله وقلبه يملؤه الإيمان . . وبين ذلك الذى ينفق مراءاة للناس وقلبه فيه الكفر والعياذ بالله . . ليقرب إلى أذهاننا الفرق الرهيب بين الجزاء الذى ينتظر المؤمن . . والجزاء الذى ينتظر الكافر على نفس العمل . . ولكن أحدهما يقوم به وفى قلبه إيمان ويقصد به وجه الله . . والثانى يقوم به وفى قلبه كفر ويقصد به الناس أو الدنيا .

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

أى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا مثلا لكل من ينفق مالا فى سبيل الله يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى .

ونلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى قد استخدم كلمة أموالهم . . مع أن المال هو مال الله . . ولكن الله أراد هنا أن يحترم الأسباب فى الكسب . . حتى يحس

مَثَلُ الكافرين

كل مؤمن بأنه ينفق من جهده فى سبيل الله . . وأنه يعطى شيئا من ذاته فى سبيل الله ، فيحس بفرحة العمل الصالح .

ويريد الله أن يكرم عبده المؤمن أو يكرم عمله . . ويقول له هذا من مالك . . أو مما اكتسبته وأنا قبلته . . وهذا إكرام من الله سبحانه وتعالى لعباده الصالحين .

﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾

الله سبحانه وتعالى وعدنا بأن الحسنة بعشر أمثالها وأنها بسبعمائة ضعف ، وأن الله يضاعف لمن يشاء . . قد تكون هذه الحقيقة بعيدة عن فكر بعض الناس . . فيتساءلون كيف يمكن أن يضاعف الله الحسنة بمثل هذه المضاعفات . . وكيف يمكن أن يكون الشىء الواحد بسبعمائة ضعف . . حينئذ يقول الله أنتم تستغربون هذا الجزاء لأنه مخفى عنكم وليس قريبا إلى عقولكم . . ولكنى سأقربه إلى عقولكم بمثل ترونه كل يوم ، ويعيش فى حياتكم المادية حتى تكون الصورة قريبة إلى أذهانكم . . هل ترون الأرض التى تزرعونها . . إنك تضع الحبة الواحدة فيها فتعطيك أضعاف أضعاف هذه الحبة . . إن المال الذى تنفقه فى سبيل الله مثل حبة قمح تضعها فى الأرض . . الحبة الواحدة تنتج سبع سنابل . . فى كل سنبلة من هذه السنابل مائة حبة . . أى أن الله سبحانه وتعالى يقول لا تستغرب من أننى أضاعف الحسنات هذه المضاعفة الكبيرة . . فو أنك نظرت إلى الأرض التى هى مخلوق من مخلوقاتى ، فإنك تجد أنك تضع فيها الحبة فتعطيك سبعمائة حبة . . فإذا كان خلق من مخلوقاتى يعطيك سبعمائة ضعف . . فما بالك بقدراتى وأنا الخالق على أن أضاعف الحسنات إلى أكثر من ذلك . . ولذلك يقول الله « والله يضاعف لمن يشاء » . . أى أنها لا تقف عن السبعمائة ضعف . . بل هى مرتبطة بمشيئة الله سبحانه وتعالى فهو يضاعف لمن يشاء . .

وبهذا يكون الله سبحانه وتعالى قد قرب لنا صورة مضاعفة العمل الصالح . . وصورة مضاعفة الجزاء للمؤمنين بحيث أصبحت صورة محسوسة . . قريبة إلى ذهن المؤمن . . يراها أمامه كل يوم . . فلا يقول أحد كيف يضاعف الله الحسنات . . وكيف أن الحسنة بسبعمائة ضعف . . بل كلما نظر إلى الزرع وإلى ما تنبته الأرض تذكر قدرة الله الذى أعطى للأرض خاصية المضاعفة . . وكيف أنه سبحانه وتعالى وهو خالقها قادر على المضاعفة أكثر . . وبلا حدود .

ثم يأتى الله إلى الصورة المضادة . . صورة ذلك الكافر الذى ينفق ليس فى سبيل الله . . ولكن من أجل نفاق الناس ورضائهم . . والذى يقدم على العمل وليس فى قلبه الله . . فبماذا يشبهه . . ؟ .

يقول سبحانه وتعالى : « **مثله كمثل صفوان** » . . أى كمثل صخرة ملساء ليس فيها حتى ولا تعاريج بسيطة يمكن أن تبقى شيئا مما عليها . . أى أن هذه الصخرة ملساء تماما ليس فيها أى فجوات . . عليها تراب يغطى سطحها . . قد يحسبها بعض الناس تربة طيبة . . لكنها كمية من التراب فوق صخر . . « **ثم أصابها وابل** » . . أى مطر شديد . . وهنا نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى لم يقل أصابها مطر . . فقد يكون المطر خفيفا فيترك جزءا من التراب فوق الصخر . . ولكن إذا كان هناك وابل من المطر فلا تبقى ذرة واحدة من التراب فوقها . . حينما نزل هذا الوابل من الماء أصبحت الصخرة « صلدا » . . أى ليس عليها ذرة واحدة من التراب الذى كان فوقها . . وانكشف أنها صخرة لا تنبت شيئا . . وأن التراب الذى كان فوقها ليس تربة . . وليس له قرار . . بل هو مجرد طبقة لا تنفع . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾

(سورة البقرة ٢٦٤)

. . أى أن الله يريد أن يقول لنا أنه حتى طبقة الغبار البسيطة التى قد تغطى حقيقة هؤلاء الكافرين فى الدينا لا يبقى منها شىء .

أعمال المؤمن والكافر

وهنا لابد أن نستحضر الفرق الرهيب بين أعمال المؤمن والكافر . . ونستحضرها من هذا المثل الذى أعطاه الله لنا . . فنجد أن المؤمن يقوم بالعمل فى سبيل الله . . ويضاعف له هذا العمل إلى سبعمائة ضعف . . والكافر قد يقوم بعمل الخير . . ولكنه يريد أن يرائى به الناس . . ولا يقصد به وجه الله ولا اليوم الآخر . . ومن هنا فإنه لا يحسب له شىء . . أو يذهب العمل إلى ما قصد به . . وفى هذا حتى نؤمن يقينا بأننا إذا أردنا عملا يجزينا به الله فلابد أن نقصد به وجه الله سبحانه وتعالى . . ولا نقصد غيره . . ولا نشرك معه أحدا وبعض الناس يناقش هذه القاعدة الإيمانية بحدة ونقول له لماذا أنت تناقشها بهذه الحدة . . هل كان فى باله الله وهو يعمل . . ان كان فى باله الله وقت أن عمل فهو عمل إيمانى يجازى عليه . . وإن لم يكن فكيف تطلب من الله أجرا عن عمل ليس فيه شىء لله . . ولو قلنا لهذا الكافر وهو يعمل . . إنك لن تأخذ أجرا من الله فسيهز كتفيه بلا مبالاة . . لأن الله لا وجود له عنده . . فكيف يأتى فى الآخرة مجادلا فيما فعل . . وهو لم يأبه فى الدنيا بما قلناه له . . الإنسان يطلب أجرا ممن عمل له . . ومن عمل للإنسانية . . وأعطته الانسانية وكرمته وأقامت له التماثيل ونشرت اسمه فى الدنيا كلها . . هذا أجره فى الدنيا . . على أن بعض الناس يجادل فى ذلك . . ويقول إن الله قال فى كتابه يغفر الذنوب جميعا . .

ونحن نقول لهم إن الله قال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾

فيقول أن هناك تعارضا بين تلك الآية وبين قوله إن الله يغفر الذنوب جميعا . . أنت الذى أخطأت حين اعتبرت الشرك ذنبا . . ولكن الشرك ليس ذنباً . . إنه فوق الذنوب جميعا . . ذلك أن الذنب يقتضى أن تكون مؤمنا بمنهج الله وشرط الذنب الذى يقتضى المغفرة من الله سبحانه وتعالى أن يكون هناك إيمان . ومخالفة وندم وتوبة . . والكافر لا يندم ولا يتوب لأنه لا منهج له .

المنافقون أخطر على قضية الدين

على أن الله سبحانه وتعالى كما ضرب الأمثال بالنسبة للكافرين ضربها بالنسبة للمنافقين . . بل إن الله اعتبر المنافقين أخطر على قضية الدين من الكافرين . . ذلك أن الكافر معروف عداؤه بالنسبة لقضية الإيمان . . وهو يجاهر بهذه العداوة . لذلك فإن المؤمنين يأخذون حذرهم منه ويواجهونه . . وهذه العداوة المسبقة تجعل كل ما يصدر عنه مرفوضا . . أما المنافق فهو يظهر المودة ويخفى العداوة . . ولذلك فإن المؤمنين يظنونه واحدا منهم فلا يأخذون حذرهم منه . . ولا ينظرون إلى ما يقول على أساس أنه عدو الله . . وفى هذه الحالة فهم يأمنون . . ويمكن أن يستغل هو هذا الأمان فى أن يطعن فى قضية الدين . . ويشكك فيها ويجد آذانا تسمعه . . ولذلك فإن المنافق أخطر على قضية الإيمان من الكافر .

ولذلك يضرب الله مثلا لهم فى سورة البقرة فيقول :

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ

مَثَـلُ الكافرين

ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

هكذا أراد الله بهذا المثل أن يوضح لنا مدى اضطراب المنافقين . . ومدى قلقهم . . ومدى الحيرة والتمزق فى ملكات هؤلاء . . هذا التمزق الذى يفضحة تصرفهم عندما يعلنون الإيمان باللسان . . ولكن قلوبهم ممتلئة بالكفر .

وإذا أردنا أن نفهم المثل ، فلابد أن نستعرض الآيات التى قبله . . يقول الله تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾

. . إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ

﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾

والله سبحانه وتعالى يمثل هؤلاء بمن استوقد نارا لتضيىء ما حوله . . وبمن أراد أن يهتدى لما حوله . . فذهبوا إلى المؤمنين علهم يحصلون على الهداية . . أو يرون طريق الهداية . . ولكن كان فى قلوبهم الكفر . . فلما أضىء لهم الطريق . . ولأنهم غير صادقين مع الله . . وغير صادقين مع أنفسهم . . ذهب الله بنورهم . . وأصبحوا لا يرون شيئا وتركهم الله فى الظلمات التى اختاروها لأنفسهم بنفاقهم وجشعهم وحبهم للدنيا . . تركهم فى هذه الظلمات لا يبصرون . . طريق الهدى . . ولا طريق الايمان . . أى أن سبحانه وتعالى علم ما فى قلوبهم . . وما يخفونه من كفر ونفاق . . فأثابهم بهذا الكفر الذى يخفونه . . فأصبحوا لا يرون شيئا ولا يسمعون شيئا .

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾

والصيب هو المطر . . والمثل كما قلنا يضرب عن المنافقين . . فكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يشببهم بأنهم كقوم أصابهم نزول المطر من السماء . . والمطر كما نعلم جميعا رزق عميم وخير وفير . . ولكنهم لم يأخذوا من المطر خيره .

لأنه كما قال القرآن الكريم : إن ذلك المطر فيه ظلمات ورعد وبرق .

أى أنه مطر عاصف صاعق . . يذهب النفس عما هى فيه . . فهم أخذوا ما جاء فى المطر من الصواعق والرعد والبرق ، ولم يلتفتوا إلى خير المطر نفسه .

مَثَـلُ الكافرين

ولابد أن نتأمل بالتفصيل هذه الصورة القرآنية التى تمثل حال المنافقين . . نحن نعرف أن المطر ينزل من السحاب . . وأن السحاب حين يتجمع فى الجو بشكل كثيف يورث الظلمة نهارا . . لأنه يحجب نور النجوم والقمر . . فالظلمة سابقة لنزول المطر لأنه لا مطر إلا من سحاب . . والسحاب من طبيعته أن يوجد الظلمة . . ومن طبيعته أيضا أن يصاحبه رعد وبرق . . والرعد يستقبله الإنسان بآلة السمع وهى الأذن . . وأما البرق فيراه الإنسان بآلة الابصار وهى العين .

ولما كان صوت الرعد قويا ، فعندئذ يفزع الإنسان عند سماعه . . ويحاول أن يبعد الصوت أو يمنع استقبال الأذن للصوت ، بأن يضع أصابعه فى أذنيه ، ليمنع شدة صوت الرعد على أذنيه . . كما يحدث ذلك أيضا بالنسبة لأى صوت عال يزعج الأذن وإن كان أقوى هذه الأصوات هو الرعد . . ولنا هنا أن نتأمل قول الحق سبحانه وتعالى . . « **يجعلون أصابعهم فى آذانهم** » . . ذلك أن كل كلمة فى القرآن الكريم كما قلنا من قبل مناسبة تماما لموضوعها . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يصور لنا أن صوت الرعد عنيف جدا . . وأنهم لذلك لا يكتفون بوضع أنملة الأصبع أو طرفه فقط لمنع صوت الرعد . . ولكنهم يحاولون أن يدخلوا كل الأصبع فى آذاتهم . . لأن الصوت عال جدا يجعل الإنسان يبالغ فى محاولة منعه . . حتى أنه لو استطاع أن يضع أصبعه كله فى أذنه لفعل . . والله سبحانه وتعالى يقول « **يضعون أصابعهم فى آذانهم** ». . ومعنى ذلك أن الذى يفعل جماعة وليس شخصا واحدا . . وكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا أن هذا المثل ينطبق على كل منافق . . أو على جماعة المنافقين على مر العصور . . وليس على منافق أو عدد معين من المنافقين .

ولنا أن نسأل كيف يحدث ذلك . . أن الأمر للجماعة يكون عادة لما يقوم به كل فرد فيهم . . فإذا كنا مسافرين وقلنا اركبوا سياراتكم فمعنى ذلك أن يتجه كل راكب إلى المكان المخصص فى السيارة التى ستحمله . . فمعنى قول الله تعالى

يضعون أصابعهم فى آذانهم . ان كل واحد من المنافقين يضع اصبعيه فى أذنيه ، وذلك حذر الموت . . ونحن نعرف أيضا أن الرعد يصاحبه برق وصواعق . . وأن الصواعق تنزل خلالها شحنات كهربائية . . قد تحرق أو تقتل . . والمنافق يعرف أن العاصفة التى فيها رعد وبرق قد تصدر عنها صواعق تسبب الموت .

ومعنى ذلك أن الإنسان يجب ألا يظن أن استقبال الخير يأتى مجردا . . فإن استقبال الخير يأتى ومعه التحمل . . هذا لابد فى قوانين الدنيا . . فأنت إذا أردت أن تكسب أكثر فإن عليك أن تعمل أكثر . . وهذا العمل يقتضى منك تحملا حتى تصل إلى ما تريد من الخير . . ولكن المنافقين لا يريدون ذلك . . فهم يريدون الخير فقط دون تحمل مشاقه . . ولذلك فالمنافق يريد بخداعه للمؤمنين أن يأخذ عاجل النفع دون أن يتحمل شيئا . . وهو يريد أن يتظاهر بلسانه أنه مع المؤمنين ليكون له نصيب فيما يجريه الله على أيديهم من خير . . وفى نفس الوقت فهو مع الكافرين حتى لا يتحمل ما يتحمله المؤمنون من مشقة إيمانية فى سبيل دعوتهم . . ومن ايذاء الكفار لهم . . وفى نفس الوقت فهو لا يريد أن يحمل نفسه على المنهج الإيمانى بما يحمله من مشقة للنفس فى تقييد شهواتها . . والمنافق قصير النظر . . مفتون بالمزايا . . وغير قادر على تحمل المسئولية .

المنافقون فى أول عهد الإسلام

ولذلك فالمنافقون فى أول عهد الإسلام لم يستطع واحد منهم أن يصبر على ما تضعه التكاليف الإيمانية على النفس من قيود . . وما يضعه المنهج الإيمانى من شدة يلقاها المسلمون من أعدائهم . . كل ذلك تحمله المؤمنون وحدهم . . ورأوا فى المطر خيره . . وهو الماء الذى ينزل من السماء ويسقى الزرع والحيوان والنبات ويشرب منه الإنسان . . ذلك الخير الذى يدوم . . أما البرق والرعد والصواعق . . فهى ظاهرة وقتية لا تبقى إلا فترة بسيطة . . فإذا تحملها الإنسان بشجاعة مرت وتركت له الخير وهو الماء . . أما إذا كان الإيمان فى النفس ضعيفا

فإنه فى هذه الحالة ترهبه هذه الظواهر الوقتية . . فيهرب من المنهج كله . . تاركا خيره وهو الماء .

والله سبحانه وتعالى يريد بهذا المثل أن يقرب إلى أذهاننا صورة المنافق الذى يخشى على ضياع الدنيا . . وترهبه أى شدة وقتية . . فيجرى تاركا الخير الأجل الباقى . . وكان يجب على الإنسان أن يصبر على أى شدة . . أو أى ابتلاء ليصل إلى الخير الأجل .

وهنا لابد أن نعرف أن المؤمن يختلف عن المنافق .

فهو يأخذ الأمور الصعبة مأخذ الجد . . ويزيح ألوان الشرور ليستخرج منها الخير . . المؤمن قد يتعرض للابتلاء والشدة ويصبر أمام هذا الابتلاء وهذه الشدة . . أما المنافق الذى يبتغى من اظهار الإيمان أن يستمتع بخيرات المؤمنين . . وفى نفس الوقت يبطن الكفر ليأمن شر الكفار . . هو كصاحب المطر الذى يريد أن يأخذ الماء ويهرب من الرعد والصواعق .

والله سبحانه وتعالى يضع دائما المنافقين مع الكفار . . ويعتبرهم كما قلنا أشد خطرا من الكفار . . ذلك أن الله يقول :

﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ۝١٩ ﴾

أى أنه سبحانه وتعالى محيط بما فى نفوسهم . . وما يخفونه عن الناس فهو يعلمه . . ومحيط بهم إحاطة قدرة . . فهو يجعلهم فى الدنيا ينالون جزاء نفاقهم وما نالوه من حقوق المسلمين . . وهنا يكون العذاب الأول . . ثم يكون العذاب الكبير فى الآخرة حين يستقرون فى الدرك الأسفل من النار .

مَثَـلُ الكافرين

الاسلام منهج

وهنا نصل إلى الحكمة الالهية من المثل . . إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن الاسلام ليس فقط نطقا بالشهادتين . . ولكن الاسلام منهج يختبر به الخالق عباده . . وهذا الاختبار هو ما تظهره التكاليف الايمانية . . والمحن والنعم . . فالنعمة ابتلاء تماما كالمحنة . . لأن الله حين ينعم على عبده يختبره . . هل سيشكر . . أم سيكفر . . فإذا استخدم النعمة فيما يرضى الله وفيما أمر به الله فقد شكر . . وإذا استخدمها فى الافساد فى الأرض . . وفيما يغضب الله . . فقد كفر بالنعمة . . والمحنة إذا صبر الإنسان عليها فقد فاز . . وإذا لم يتحملها وضاق بها . . قادته إلى المعصية . . وهكذا نعرف أن الابتلاءات هى لتمييز المؤمن . . والله يريد أن يخبرنا أن المنافق لا يريد أن يتحمل تكليفا . . وإنما يريد أن يحصل على ميزات فقط . . ولذلك فقد شبههم الله سبحانه وتعالى فى الجزء الأول من المثل بأنهم كالذى استوقد نارا . . ولكنه فقد القدرة على الابصار بهدى الضوء ، رغم أنه لم يفقد بصره . . لأن النفاق أعمى قلوبهم وسد أسماعهم ووضع غشاوة على أبصارهم .

ثم يأتى الجزء الثانى من المثل مكملا الصورة :

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

هؤلاء المنافقون

إن هؤلاء المنافقين الذين يحيطون بالمؤمنين ويظهرون الإيمان وهم يبطنون الكفر . . إنما يريدون بذلك فائدة دنيوية . . وهم يريدون أن يحصلوا بدون وجه حق على خير مما يصيب المؤمنين أو مما يملكونه . . وهم بهذا قد دخلوا مدخلا إيمانيا بدعوى أنهم آمنوا أو يريدون أن يؤمنوا . . ومن هذا المدخل الايمانى . .

ومن جلوسهم مع المؤمنين رأوا نور الله . . كان لابد فى هذه الحالة أن ايمانهم يرى على ضوء ذلك الهدى . . ولكن الإيمان فى القلب ليس سلبيا . . ولذلك فإن القلب لا يستقبل . . والنور لا يصل . . فهم رغم وجودهم فى مجالس الإيمان . . وجلوسهم وسط النور الإيمانى . . فإنهم لا يرون شيئا . . لأن الله سبحانه وتعالى قد ذهب بنورهم . . وهم مع أنهم يجلسون فى مجالس الإيمان التى يشع عليها نور الله سبحانه وتعالى . . فإنهم فى ظلمات لا يبصرون شيئا من هذا النور . . وهم رغم جلوسهم فى مواكب الإيمان يسمعون كلام الله . . فهم صم لا يصل هذا الكلام إلى آذانهم فيعرفونه . ، ورغم أنهم يحضرون مجالس الايمان فهم لا يستطيعون أن يتحدثوا حديث الايمان ، لأنهم لا يعرفون هذا الحديث فقلوبهم لم تستوعبه .

وهم فى هذه الحالة كمثل قوم نزل عليهم مطر غزير من السماء . . أى نزل عليهم خير عميم من الله سبحانه وتعالى . . وصاحب هذا المطر برق ورعد . . ولكنهم لقصر نظرهم لم يلتفتوا إلى الخير . . بل خافوا من المصاعب الوقتية التى تصاحبه . . فأصبح همهم هو كيف يهربون من هذا الخير العميم خوفا من أن تصيبهم صاعقة فتقتلهم أو أذى . . أو شدة فتزعجهم .

ولو أنهم فطنوا لعرفوا أن الزمن الذى يستغرقه الرعد والبرق قليل . . بينما النفع الذى يجلبه المطر دائم ولاستفادوا من هذا النفع الدائم بدلا من أن يفروا من شدة وقتية تواجههم . . ولكنهم فى بحثهم عن الخير العاجل . . ولأنهم تظاهروا بالإيمان دون حقيقة أو صدق وحتى يصلوا إلى النفع العاجل . . فإنهم لا قوة لهم ولا عزم . لأنهم لا إيمان لهم . . وهم يحسبون كل صيحة عليهم . . وهم أول من يفر من أى قتال .

مَثَـلُ الكافرين

حديث قدسي

يا عبادي . إني حرمت الظلم على نفسي ،وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا . يا عبادى ، كلكم ضال إلا من هديته . فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته . . فاستطعمونى أطعمكم . يا عبادى ، كلكم عار إلا من كسوته . فاستكسونى أكسكم . يا عبادى انكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا . فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم . وإنسكم وجنكم . كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئا . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم : وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا فى صعيد واحد . فسألونى ، فأعطيت كل إنسان مسألته . ما نقص ذلك مما عندى . إلا كما ينقص المخيط . إذا أدخل فى البحر . يا عبادى . إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم . ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيرا فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك . فلا يلومن إلا نفسه .

* * *

كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك . وأما تكذيبه إياى . فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق على أهون من إعادته . وأما شتمه إياى . فقوله اتخذ اللهولدا . وأنا الأحد الصمد ، لم ألد ولم أولد . ولم يكن لى كفوا أحد .

* * *

« ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ؟ . فليخلقوا ذرة . أو ليخلقوا حبة . أو شعيرة » .

الفصل الخامس

مثل التحدى

مَثَلُ التحدى

الله سبحانه وتعالى لم يضرب للكافرين الأمثال فقط على ما هم فيه من ضلالة ليقرب هذه المعانى إلى عقول المؤمنين . . بل تحدى الله سبحانه وتعالى . . بدقة الخلق . . وتحدى بقدرة الخلق . . ففى سورة البقرة قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

عندما نزلت هذه الآية . قال أهل الكفر والنفاق . . كيف يضرب الله المثل فى القرآن بالبعوض والذباب والعنكبوت . . تلك المخلوقات الضعيفة التافهة . . ولكن قصر نظر هؤلاء الكفار والمنافقين هو الذى صور لهم أن البعوض أو الذباب أو العنكبوت . . هى كائنات ضعيفة واهية بالقياس الحجمى بالنسبة للإنسان . . فالذبابة أو البعوضة أو العنكبوت حجما وقوة إذا قسيت بالإنسان فهى لا تساوى شيئا . . ولكن الله سبحانه وتعالى . . ضرب الأمثال بهذه الكائنات . . ليصور العلاقة بين أضعف المخلوقات وبين مقدرة الخالق . . وبين ادعاء المشركين . . بأن الله له شريك فى الكون .

وقد ضرب الله فى مثل آخر سنتحدث عنه فى هذا الفصل . . ضرب مثلا بالذبابة . . وكيف أنها وهى أضعف المخلوقات . . قد وضع الله سبحانه وتعالى تحديا فيها بالنسبة لقدرة الكون كله . . وتحدى الله سبحانه وتعالى فى المثل :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ

مَثَلُ التحدى

﴿ ... اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

(سورة الحج)

إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها . . يتساءل بعض الناس : كيف يقول الحق سبحانه وتعالى - فى معرض ضربه للأمثال تقريبا لأذهان عباده - إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا . . نقول أن الله سبحانه وتعالى حين يصف نفسه بصفة . . أو يسمى نفسه أسماء كالرحمن . . والرحيم . . والعزيز . . والقدير . . فهذه نسميها أسماء الله . . أو صفات الله . . ولكن حين يسند الله سبحانه وتعالى إلى ذاته فعلا . . فإننا لا نشتق من هذه الفعل أو تلك الأفعال أسماء لله أو صفات لله . . مثال ذلك قوله تعالى فى سورة الأنفال :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى هنا يمثل صراعا بين الكفار وبين رسول الله . . فالكفار يريدون أن يمكروا بالرسول بتدبير أمورهم كلها سوء وأذى . . وهم يحسبون فى ذلك . . أنهم فى سريتهم وحذرهم . . وهم يدبرون خطط الشر والايذاء . . ويحسبون أن الله غير محيط بهم . . ولكن قدرة الله محيطة بهم . . ولذلك فهى تعد لهم من الأحداث ما لا يعرفونه . . وما يفسد خططهم تماما . . ويردها إليهم فلا يحققون شيئا . . وتدبير الله سبحانه وتعالى هو الغالب . . لأن الله هو القوى العليم . . هنا لا نستطيع أن نقول أن خير الماكرين اسم من أسماء الله سبحانه

وتعالى . . لأن الفعل وهو المكر منسوب إلى الله سبحانه وتعالى فى قوله خير الماكرين . . وإنما يريد أن يقول لنا أنه قادر على حماية رسول الله من مكر الكافرين . . وأن تدبيره أعلى من تدبيرهم . . وأمره هو النافذ عليهم . . سواء أرادوا أو لم يريدوا . . ويسمى ذلك فى اللغة مشاكلة .

الاستحياء

فإذا سأل سائل . . فكيف ينسب إلى الله القول أن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا . فالاجابة هى أن الله يرد على الكفار الذين قالوا ألا يستحى رب محمد أن يضرب مثلا بكذا وكذا . . وفى تلك لفتة إلى أن علم الله أعلى من علمهم . . وأن مايعتبرونه هم شيئا تافها . . لا يستحق من الله سبحانه وتعالى أن يضرب مثلا به . . إنما فى الحقيقة فيه قدرة وحكمة تجعل الله يضرب لنا هذا المثل .

والاستحياء هو تغيير فى البنية والسلوك عند الخوف من القيام بعمل يعيب الإنسان أن يفعله . . أو لا يريد أن يراه أحد وهو يفعله . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد وصف الاستحياء كفعل انسانى فى سلوك ابنة شعيب . . عندما ذهبت إلى موسى عليه السلام . . تطلب منه أن يأتى ليقابل أباها . . فيقول الحق تبارك وتعالى فى سورة القصص :

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ ﴾

إذن فذهاب ابنة شعيب إلى موسى وأن تكلمه أمام الناس وهو غريب عنها . . مسألة اعتقدت أنها تعيبها . . أو على الأقل غير محببة إلى نفسها أن تفعلها أمام الناس . . ولكنها مأمورة من والدها أن تفعل ذلك . . ولذلك فهى تفعله وهى

كارهة . . فالاستحياء أمر قسرى . . يعترى الإنسان عند خوفه من أن يلام من فعل قام به . . وهو فى الغالب صراع بين ملكات النفس البشرية . . فهناك ملكة تدعو النفس البشرية إلى المعصية . . وتأتى أخرى وتحاول أن تمنعها . . وهكذا نعرف أن الاستحياء هو خوف من فعل غير محمود . . وهو بمعناه لا ينطبق إلا على السلوك البشرى . .

أما قول الله سبحانه وتعالى إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها . . فذلك ليس معناه أنه تغيير قسرى أو خوف من فعل شيء يعاب عليه . . والله جل وعلا منزه عن ذلك تمام التنزيه المطلق . . والله يغير ولا يتغير . . ويفعل ولا ينفعل . . ولكن هذا بيان لجهل الكافرين الذين تساءلوا عن استحياء الخالق فى أن يضرب مثل هذا المثل . . ذلك أنهم تساءلوا عن شيء يدل على عدم العلم . . وعدم القدرة على الفهم . . فهم كما قلنا قد نظروا إلى المظاهر وهو الحجم . . ونظروا إلى الضعف الظاهرى . . ولكنهم لم يفطنوا إلى قدرة الخالق فى الدقة . . وفى الاعجاز . . ولذلك فإنهم عندما قالوا وهم لا يعلمون ألا يستحى الله . . رد الله عليهم بأنه لو علمتم القدرة والحكمة وأوتيتم من العلم . . لعرفتم أن هذا المثل لابد أن يضربه الله سبحانه وتعالى . . وأن هذا المثل لا يرمز إلى شيء أو لا يبين شيئا يستحيى منه أحد . . بل أن قدرة الله لابد أن يضربها لكم لتفهموها . . ومعنى يضرب الله مثلا . . أى أن الله يريد لهذا المثل أن يشيع بين الناس . . وهو يأتى من ضرب النقود . . أى سكها حتى تصبح صالحة للتداول بين البشر . . إذن الله سبحانه وتعالى يريد لهذا المثل أن يتداول بين الناس . . ويريد أن يقول للكفار أنه لا يوجد فى هذا المثل ما يجعل من يضربه يستحى منه . . بل توجد فيه من مظاهر القوة والقدرة ما لابد أن يبين للناس .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى « بعوضة فما فوقها » . . إذا أخذنا البعوضة على أنها قليلة الحجم بالنسبة للإنسان . . فإن فى هذه عظمة للخالق . . وإذا

مَثَلُ التحـدى

أخذناها على أساس ضعف قوتها بالنسبة لقوة الإنسان . . فإن فى هذا قوة للخالق . . ولنتحدث عن ذلك . . نقطة . . نقطة .

النقطة الأولى هى قلة حجم البعوضة بالنسبة للإنسان . . بل إن الله سبحانه وتعالى قال « فما فوقها » . . أى ما أصغر منها . . نقول . . إذا تأملنا التقدم العلمى الذى تم فى العالم . . نجد أن هذا التقدم والرقى يسير نحو الدقة . . ففى أول الأمر مثلا كانت الساعة تصنع كبيرة ضخمة تحتاج إلى مساحة . الآن هناك ساعة توضع مكان فص الخاتم وأقل من ذلك . . وقديما كان الراديو مثلا يحتل مساحة كبيرة . . أما الآن فقد أصبح حجمه أقل من حجم الكف . . والسيارة مثلا كانت كبيرة الحجم قليلة السعة . . وهى الآن تتطور . . والآلات الحاسبة كانت فى الماضى لابد أن توضع على المكتب لا يستطيع أحد أن يحملها من مكان إلى آخر لكبر حجمها ، فأصحبت الآن توضع فى الجيب وتقوم بعمليات متعددة . . وهكذا كلما ارتقى العلم وتقدمت البشرية . . مالت الأشياء إلى الدقة وصغر الحجم . . بل أنه فى الماضى مثلا كان لابد للطائرات أن تحمل أطنانا من القنابل ، حتى تستطيع أن تدمر حيا من الأحياء . . وكان لابد أن تشترك عشرون أو ثلاثون طائرة ، لأن حجم القنابل الذى يحمل كان كبيرا جدا . . أما الآن فإن طائرة واحدة تحمل قنبلة هيدروجينية تستطيع أن تدمر مدينة بأكملها . . إذن الدقة أو صغر الحجم هو من علامات التقدم العلمى . . أو الرقى فى العلم .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول للكفار . . أنتم التفتم إلى صغر حجم البعوضة بالنسبة لحجم الانسان فاحتقرتموها . . ولكنكم لم تلتفتوا إلى دقة الخلق . . فإن هذه البعوضة بحجمها المتناهى فى الصغر تحمل معها كل أجهزة الحياة . . من عيون ترى . . وأجنحة تطير . . وأجهزة جنسية لحفظ النوع . . وجهاز هضمى للطعام وإخراج الفضلات وكل مقومات الحياة . . لم تلتفتوا إلى دقة الصنع وعظمة الخالق الذى وضع كل سبل الحياة فى هذه المساحة

الصغيرة . . ولو أنكم التفتم إلى هذا لعرفتم الحكمة من المثل . . ولأدركتم أن هذه البعوضة الصغيرة التى تسهينون بها فى مثل حى وضعه الله أمامكم على دقة الخلق وقدرة الخالق ، فى أن يجمع كل تلك الأجهزة اللازمة لحياة هذا الكائن الحى فى هذا الحجم الصغير . . ولكنها سطحية التفكير وعدم القدرة على التمييز فى عقول الكافرين .

حكمة الخلق

ثم يقول الله سبحانه وتعالى « فما فوقها » . . أى أن الله لا يضرب مثلا بالبعوضة فقط المتناهية الصغر فى الحجم . . بل إنه سبحانه وتعالى لم تقف قدرته عن خلق البعوضة فى هذا الحجم الصغير . . بل هناك ما هو أصغر من ذلك بكثير خلقه الله . . ولذلك فليس هنا نهاية قدرة . . بل القدرة ممتدة إلى ما هو أصغر وأصغر . . وقد تقدم بنا العلم ، فاستطعنا أن نرى أشياء لم نكن نراها لدقة حجمها . . ووجدنا أن هذه أشياء كلما صغر حجمها . . زادت قوتها وقدرتها . . فالجراثيم مثلا على دقة حجمها تستطيع أن تقتل أقوى الكائنات الحية ، وتهلكه دون أن يستطيع النجاة منها . . بل أن أخطر الجراثيم خطرا على الحياة البشرية هو الذى لا نستطيع أن نراه حتى الآن لدقة حجمه ، فلا يظهر تحت الميكرسكوب الالكترونى . . وهذا لا يستطيع العلماء أن يقاوموه . . أو أن يجدوا له علاجا لأنهم لا يرونه . . ومن ثم لا يستطيعون اجراء التجارب العلمية عليه لدرء خطره . . ولذلك يصبح هذا المخلوق المتناهى فى الدقة هو أكثر خطرا على الإنسان من الجراثيم التى ترى . . ولا يستطيع أحد أن يعرف الداء ليجد له الدواء . . ولذلك فإن المشكلة التى تحير العلماء فى كثير من الأمراض ، هى التى لا يستطيعون عزل الميكروب المسبب للمرض حتى يرونه ويدرسونه ويفحصونه .

بل ان من أكثر الأشياء دقة وربما فتكا ، هى الأسلحة التى لا ترى كاستخدام أشعة الليزر مثلا . . وهذه وحدها هى القادرة على تدمير الأقمار الصناعية أو

اصابتها فى الفضاء للدقة المتناهية . . وكذلك الأسلحة الكيماوية التى تنتشر فى الجو فتقتل عشرات الألوف فى لحظات ، مع أن أحدا لا يراها . . وربما لا يميز الإنسان رائحتها .

إذن الدقة فى الخلق هى إعجاز من الله سبحانه وتعالى . . لابد أن نتنبه له . . وكلما زادت الدقة . . زادت معرفتنا لقدرة الخالق الذى استطاع أن يخلق فى هذا الحيز الصغير الذى لا يرى بالعين المجردة . . استطاع أن يخلق فيه حياة تتكاثر . . واستطاع أن يخلق فيه قوة تستطيع أن تفنى ما هو أكبر منها بملايين المرات . . وما هو أقدر منها ظاهريا . . ولو أن الكفار كان لديهم شيء من العلم . . أو حتى من الفهم . . لتنبهوا لهذه الحقيقة . . ولعرفوا أن الله سبحانه وتعالى حين يضرب هذا المثل ببعوضة فما فوقها . . فإنه يلفتنا إلى القدرة الإلهية فى دقة الخلق . . ويلفتنا إلى أن ما قد لا نراه بأعيننا قد يكون أشد قوة وأخطر مما نرى . . على أنه حتى فى البعوضة نفسها . . فإن ذلك المخلوق الذى قال عنه الكفار . . ألا يستحيى رب محمد أن يضرب مثلا ببعوضة . . أن يعرفوا من ظاهر الحياة الدنيا أنهم عاجزون أمام هذه البعوضة الصغيرة الضعيفة التى يحتقرونها . . فهى تستطيع أن تأخذ جزءا من دمائهم دون أن يستطيعوا أن يردوها . . أو يعيدوها مرة أخرى إلى أجسادهم . . وهى تستطيع أن تنقل إليهم الأمراض التى قد تقتلهم . . ولا يستطيعون منها النجاة . . ولذلك فإن ضرب المثل بالبعوضة فيه حكمة بالغة .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة البقرة)

أى أن الذين آمنوا لتفكرهم وتدبرهم لآيات الله ، يعرفون أن ما قاله الله سبحانه وتعالى هو الحق . . وحتى لو لم يصلوا إلى العلم الأرضى فى هذا المثل . . فيكفى أن الله سبحانه وتعالى قد ضرب هذا المثل ليكون حقا . . فالمؤمن يستقبل كلام الله سبحانه وتعالى من منطلق إيمانى . . ومادام الله قد قال . . فيكفى هذا . . فإذا ظهرت الحكمة بعد ذلك . . أو كشف الله سبحانه وتعالى عن الحكمة يكون ذلك تثبيتا للإيمان . . وإذا شاء الله أن يبقى الحكمة فى علمه هو . . فيكفى حيثية عند الإنسان المؤمن أن الله قد قال . . ولذلك فإن كلام الله يزيد المؤمنين إيمانا وتصديقا . . أما الكافرون الذين لا يؤمنون بالله . . فإنهم يأخذون هذا الكلام على ظاهره . . وعندما تفشل عقولهم أو لا تستطيع الوصول إلى الفكر السليم وراء المثل . . فإنهم يقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا . . ولو أنهم تفكروا وتدبروا دون بحث علمى أو تقدم تكنولوجى . . فى كيف أن الله سبحانه وتعالى خلق فى هذا الحجم الصغير حياة كاملة . . لكان هذا يكفى . . ولكن حتى هذه النقطة لم يتنبهوا إليها . . ولم تعرفها عقولهم . . بل أن كل ما وصل إليه تفكيرهم هو أن الإنسان كبير الحجم والبعوضة صغيرة الحجم . . ومن هنا فإن الله ضرب الله سبحانه وتعالى المثل بالبعوضة . . هو شيء فى رأيهم لا يصح . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة البقرة)

أى أن الله سبحانه وتعالى بهذا المثل يضل به كثيرا من الناس . . من المشركين والكافرين والمنافقين . . الذين لا يأخذون من الحياة الدنيا إلا ظاهرها . . دون عمق أو تعمق . . وهم يريدون شيئا سهلا ميسورا دون أن يتعبوا أنفسهم حتى فى التفكير . . أما أولئك المؤمنين الذين يتدبرون القرآن الكريم . . فهذا المثل يهدى كثيرا منهم . . لأنهم يتدبرون فى كلام ويصلون إلى المعنى المقصود من دقة الخلق .

مَثَلُ التحدى

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

أى أن أولئك الذين تصيبهم الضلالة هم الفاسقون الخارجون عن منهج الله الذين امتلأت أفكارهم وعقولهم بتفاهات الظاهر دون أن يتدبروا شيئا من حكمة الخلق .

التحــدى الأعظــم

تأتى بعد ذلك إلى المثل الذى تحدى به الله سبحانه وتعالى حين قال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾

(سورة الحج)

وفى هذا المثل تحد للبشرية كلها . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول لهم إنكم وما تدعون من دون الله من آلهة أو من علم أرضى لن تخلقوا الذباب الذى تعتبرونه مخلوقا تافها . . ولو اجتمعتم جميعا . . ولقد كان هذا المثل فى الماضى تحد بأن ما يشرك به الناس من أصنام وآلهة مزيفة عاجزة عن أن تخلق الحياة فى أتفه الأشياء بالنسبة لنظرتهم على الأقل . . فهى لا تستطيع أن تهب الحياة لأحد ولو للذبابة . . ثم يتقدم الزمن وتتقدم الحضارات والعلوم والاختراعات . . ويصل الإنسان إلى القمر . . وقد يصل إلى المريخ والزهرة . . ويأتى العلم كل

مَثَلُ التحدى

يوم باختراع مذهل لا تصدقه العقول . . وتسمع من يقول لك . . لقد انتهى عصر الإيمان وبدأ عصر العلم . . وترد أنت عليهم بهذا المثل . . إن الله قد تحداكم أن تخلقوا الحياة . . ولم يتحداكم بأن تخلقوا كونا مثل الكون الذى خلقه الله سبحانه وتعالى . . ولا شمسا تضىء ملايين السنين و نجوما . . ولا قمرا . . كلها معلقة بالفضاء لا يمسكها إلا قدرة الله سبحانه وتعالى . . ولم يتحداكم أن تخلقوا أرضا مثل الكرة الأرضية التى تعيشون عليها . . ولا نعما مثل التى ملأ الله بها الأرض من ماء وهواء . . وتربة خصبة تنبت الزرع . . ولاتحداكم أن تخلقوا إنسانا مثل ملايين البشر الذين خلقهم الله سبحانه وتعالى . . ولكنه تحداكم أن تخلقوا ذبابة . . وتحداكم أن تجتمعوا من أجل ذلك . . وقال أنكم حتى لو اجتمعتم لن تفلحوا . . وكأن التحدى للناس جميعا .

ولكن يبين الله سبحانه وتعالى . . أنه هو الذى يعطى العلم للإنسان . . وهو الذى يكشف له عن أسرار وضعها فى كونه . . فقد كشف لكم الله عن أسرار جعلتكم قادرين على غزو الفضاء . . وعلى السير فوق القمر . . وعلى اكتشاف خصائص مذهلة فى الكون . . ولكنه حجب عنكم العلم الى تحداكم فيه . . وهو خلق المادة الحية أو خلق ذبابة .

وقول الله سبحانه وتعالى . . ضُرِبَ مثل فاستمعوا له . . وكلام الله متعبد بتلاوته . . لا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة . . معناه أنه لابد أن تستمع لهذا المثل فى كل عصر . . وحتى قيام الساعة . . وهو منطبق وحقيقى فى كل العصور . . أى أنه يقينا لن يأتى عصر يستطيع الإنسان أن يخلق فيه ذبابة مهما تقدم به العلم ومهما ارتقى . . ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى ذلك . فيقول : « **فاستمعوا له** » . . ثم يقول الله إن الذين تدعون من دون الله . . وهكذا كان التحدى من الله سبحانه وتعالى على اطلاقه . . أى الذين تدعون من دون الله من آلهة . . وعلم . . وعلماء . . وأصحاب قدرة . .

صحاب نفوذ . . وشياطين وجان . . وكل من تستطيعون أن تدعوه من دون
. . قوموا بدعوتها . . وأجمعوهم جميعا . . وقولوا لهم تعالوا واخلقوا لنا ذبابة
حدة . . فإن استطاعوا يكون لكم العذر فى دعوتكم . . ولكن الله يقول لنا
م غير مستطيعين . . حتى الآن . . وحتى هذه اللحظة لم يستطع علماء الدنيا
ها . . ولا معامل الدنيا كلها . . ولا أبحاث الدنيا كلها أن تخلق جناح
بة . . أو حتى خلية للمادة الحية . . بحيث يستطيع أى مكابر أو جاحد أن
ل هذا من خلق الإنسان . . وفى هذه الآية اعجاز كبير لأن الله سبحانه
الى . . كان فى علمه سيأتى بعض الناس بعد ألوف السنين ليقولوا انتهى
سر الإيمان وبدأ عصر العلم . . فرد الله سبحانه وتعالى عليهم قبل أن
لوها . . وقال لهم : إذا كان عصر الإيمان قد انتهى وعصر العلم قد بدأ . .
ه سبحانه وتعالى هو الذى خلق كل هذا الكون . . بما فيه . . ومن فيه . .
يريد منكم إلا أن تخلقوا ذبابة واحدة لتثبتوا دعواهم وحتى تقدموها حيثية لهذا
دعاء . . والله يقول لكم قبل أن تقدموا على ذلك . . انكم لن تقدروا . . أى
يبلغكم بالنتيجة قبل أن تبدأوا لتعلموا أن الله بكل شىء عليم .

ثم يمضى الله سبحانه وتعالى ليزيد فى تحقير الكافرين والمنافقين . . ويقول
. . ربما كانت مسألة الذبابة هذه صعبة عليكم . . ولذلك فسأيسرها
م : إذا أخذ الذباب منكم شيئا فاستعيدوه منه . . إذا علق بأرجل الذباب
ء من طعامكم فاستعيدوه منه مرة أخرى . . ثم يزيد الله فى التحدى فيقول
ى هذا لن تستطيعوه « وأن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه » . . أى أن الله
حانه وتعالى نزل بالتحدى من مرحلة الخلق إلى مرحلة استعادة ما يسلبه
باب . . وقال . . وحتى هذه لن تستطيعوها .

عظمة الخالق فى دقة الخلق

ثم قال الله سبحانه وتعالى : « ضعف الطالب والمطلوب » . . أى أن
طلبته منكم هو ضعيف جدا . . ومع ذلك فإنكم لا تستطيعون مقابلة هذا

مَثَلُ التحدى

التحدى رغم ضعفه .

﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾

أى أن البشر كلهم لا يقدرون قدرة الله حق قدرها . . فالله قوى لا حو
ولا قوة لغيره . . عزيز يفعل ما يشاء . . ولا يوجد من يحاسبه على فعله . . أ
أنه كان يكفى نظرة واحدة لقدرة الله فى كونه أن تجعلكم تعرفون هذه القد
وتروها . . وتسلمون بها . . على أن هناك مثلا آخر ضربه الله سبحانه وتعا
بالنسبة لمذهبات النعمة . . وحذرنا ألا نقع فيها . . ذلك المثل هو انكار ح
الفقير واليتيم والمسكين والمحتاج فى النعمة . . ومحاولة أخذ حقوقهم من الزك
الصدقة وغيرهما مما فرضه الله . .

فقال الله سبحانه وتعالى فى سورة « الروم » :

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُو
وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

وبعض الناس يعتقد أن المال يزيد بأكل حق اليتيم والفقير والمسكين . . و
الصدقة تنقص المال . . والزكاة تذهب بجزء منه . . والحقيقة غير ذلك تماما .
فالصدقة والزكاة تطهران المال وتحفظانه . . وتزيدانه بركة . . فتبقى النعـ
وتستمر . . والمال هو مال الله . . أتانا إياه ليرى ماذا سنفعل . . وهل سنشـ
على النعمة . . أم سنبغى ونطغى ونفسد فى الأرض . . والله جعل فى ماله حـ
للضعفاء والفقراء . . فلا آتى أنا وأسلب هذا الحق . . لأن الله قادر على
يذهب بالمال كله .

مَثَلُ التحدى

ولنقرأ فى سورة القلم :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾

فهو يضرب لنا مثلا بأصحاب الجنة . . مجموعة من الناس يملكون بستانا بيرا . . أتى ثمره وحصاده وهم فى هذا البستان الذى ملأه الله لهم بالنعم ، يدون أن يأكلوا حق اليتيم والفقير والمسكين فى هذه النعم ، فلا يعطوه تقه . . ولذلك فإنهم اتفقوا على أنهم يذهبون فى الصباح الباكر ليحصدوا هذه لنعم قبل أن يستيقظ الناس . . ولا يسمحوا ليتيم أو فقير بأن يقترب من ينهم . . وفى الصباح الباكر . . وقبل طلوع الشمس يوقظ بعضهم بعضا ،

ويتسللون واحدا بعد الآخر إلى الجنة ليأخذوا ثمرها . . حينئذ . . وحين يصلون يجدون أن الثمر كله قد تلف . . والرزق كله احترق وأصبح هشيما . . ذلك أنه وهم نائمون طاف عليها طائف من الله فأصبح ثمرها كالصريم . . أو الشيء المحترق . . المهشم . . أى لا تصلح للغذاء الآدمى . . جفت وسقطت وتلفت فأصبحت لا تصلح لشيء . . حينئذ أعتقد أصحاب هذه الجنة أنهم قد ضلوا الطريق إليها . . وأنهم لابد دخلوا مكانا آخر . . فلقد كانت هذه الجنة حتى ساعات قليلة مليئة بالثمار الناضجة الطازجة . . ولكنهم تأكدوا من أنهم فعلا فى جنتهم التى يملكونها . . وحينئذ تنبهوا أنهم قد نسوا الله . . ونسوا قدرته . . وأنهم فى ظلمهم للضعفاء لم يتذكروا أن الله مع هؤلاء الضعفاء . . وأنه هو ناصرهم . . فأفاقوا وقالوا : إنا لضالون بل نحن محرومون من نعم الله .

وفى اللحظة التى أفاقوا فيها وتذكروا قدرة الله . . بدأوا يسبحونه « قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون » . والأوسط هنا إشارة إلى أن خير الأمور عند الله الوسط . . وهو بين الاسراف والتقتير . . قال أوسطهم لولا تسبحون الله وتعودون إليه . . ثم أخذوا يلومون بعضهم البعض . . وكل واحد منهم يحاول أن يحمل الآخر تبعة ما حدث . . واعترفوا بأنهم كانوا طاغين ومتجبرين فى حق المحتاج واليتيم .

وفى هذه اللحظة تذكروا أن الله سبحانه وتعالى يفتح باب التوبة ويبدل العسر يسرا . وقالوا عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها .

ويقول الله سبحانه وتعالى « كذلك العذاب » فى الدنيا . . إن من ينسى الله ويحرم الفقير والمسكين من حقه . . يحرمه الله من نعمه .

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى يبين للإنسان المؤمن . . فالقرآن نزل . يبين لنا مهلكات النعم فى الدنيا . . أو مذهبات النعم . . وقال أيها المؤمنون إذ

أردتم أن تبقى نعم الله عليكم . . فتذكروا دائما أن النعمة من الله سبحانه وتعالى فأنسبوا الفضل لله دائما حتى تبقى النعمة . . وإياكم أن تنسبوا الفضل لأنفسكم وتنكروا فضل الله . . وتظنوا أن هذه النعم دائمة لكم بقدراتكم أنتم . . فإن الله سبحانه وتعالى قادر ـ وهو الذى منحها ـ أن يذهبها . . ولذلك أعطانا مثل صاحب الجنتين . . ومثل قارون . . أحدهما لديه نعمة عاجلة . . والآخر لديه نعمة مختزنة . . وكلاهما أنكر قدرة الله ونسب النعمة لنفسه .

أصحاب الجنة !

والمثل الآخر لمذهبات النعمة ، هم أصحاب الجنة ، الذين أنكروا حق الضعيف والمسكين والفقير . . فأراد الله أن يذكرهم أنهم قد نسوا حق أولئك الذين أوصى الله بهم . . فإن الله ينساهم ويذهب عنهم النعمة . . ولذلك فأول الأشياء فى بقاء النعمة أن تنسب الفضل لله سبحانه وتعالى . . ولا تنكرها . . وأن تخرج حق من أوصى بهم الله . . وتتذكر أنهم إذا كانوا ضعفاء لا يقدرون . . فإن الله سبحانه وتعالى الذى أوصى بهم هو حاميهم وهو معهم . . فأول شيء تفعله هو أن تخرج حق الضعفاء فى النعمة .

خير الأمور الوسط

على أن الله سبحانه وتعالى أعطى أمثالا ليثبت بها المؤمن . . أمثالا تشرح له الحياة الدنيا حتى لا تغره . . وأمثالا تقربه من موعد الآخرة حتى لا ينساها . . وأمثالا تحذره من أن يغتر بقدرة الإنسان على التقدم والحضارة . .

والله سبحانه وتعالى ضرب للمشركين أكثر من مثل فى القرآن الكريم . . ليبين الضلالة التى يعيشون فيها . . وتفاهة الفكر الذى يعتنقونه . . وهو فى هذه الأمثال كلها . . أراد أن يقرب المعنى للإنسان المؤمن . . حتى يستطيع أن يستوعب الحكمة . . وأن يعرف قدر هؤلاء الناس وضحالة فكرهم . . بل إن

مَثَلُ التحدى

الله سبحانه وتعالى تحداهم فى مثل ضربه لهم سيظل ساريا إلى يوم القيامة ، وفى كل الأمثال التى ضربها الله ، كانت بأشياء من واقع الحياة لتقرب المعنى إلى ذهن الإنسان المؤمن .

قضية الشرك محسومة

على أن قضية الشرك بالله . . قضية محسومة كما قلنا . . فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق وأوجد . . وقد أخبرنا بذلك . . ولو أن هناك آلهة أخرى . . لقالت وردت . . وكون الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق وهو الذى أوجد . . وهو الذى أبلغنا تكون قضية وحدانية الله محسومة تماما . . ولكن بعض الناس تأبى عقولهم . . إلا أن يحاولوا أن يشوهوا هذه الحقيقة . . وبعضهم يتخذ من البشر آلهة . . وبعضهم تخلق له مخاوفه آلهة . . وبعضهم يغريه الشيطان .

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الحشر)

إذن كل من يتخذونه أولياء من دون الله إنما يتخذونه وهما . . وإنما يعبدون خوفا . . وإنما يخترعون خيالا .

ويأتى الله سبحانه وتعالى ليناقش جل جلاله هذه القضية فى القرآن الكريم . . ويضرب لنا مثلا فى سورة الزمر :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

مَثَلُ التحــدى

الله سبحانه وتعالى يريد أن يوحد الناس . . والناس قد اخترعت آلهة متعددة فى غيبة من العقل . . حتى أن بعضهم صنع آلهة بنفسه ثم عبدها . . وفى ذلك تحقير للعقل البشرى . . ويأتى الله سبحانه وتعالى برحمته . . ويريد أن يلفتهم إلى عبادة الإله الواحد . . هنا يأتى لهم بمثل من واقع حياتهم . . فيقول الله سبحانه وتعالى اننى سأضرب لكم مثلا فى العبودية والسيادة من واقع حياتكم :

هب أن عبدا مملوكا لعدد من الأسياد . . وهؤلاء فوق أنهم متعددون . . أى أن لكل منهم سلطات . . يريد من هذا العبد أن يلبى رغباتها . . وفوق أنهم متعددون . . فأنهم مختلفون لا يتفقون على رأى . . بل لكل واحد منهم رأى مخالف للآخر . . هذا يعطى أمرا . . وذلك يعطى أمرا مضادا . . والثالث له أمر يخالف الأمرين السابقين . . وبينهم تشاكس وتنافر . .

يريد الله سبحانه وتعالى أن يعطى هذه الصورة الغيبية فى هذه الصورة الحسية . . مشاهدة فى كل يوم . . فإن لم يكن يراها على نفسه فإنه يراها على غيره .

ويسأل الله عباده . . أيرتاح هذا العبد الذى يأتمر من أسياد متعددين مختلفين . . أيحصل على الراحة . . أيستطيع أن يرضيهم جميعا . . وإذا كان ذلك مستحيلا . . فهل يستطيع أن يرضى بعضهم دون أن يخاف انتقام الآخرين وغضبهم عليه . . وهل هذا العبد هو الذى يصل إلى الحياة المريحة . . أم ذلك الذى يأتمر بأمر إله واحد وسيد واحد . . فهو عنده أمر واحد فقط يعطيه . . ولا يحدث خلاف . . لأن الأمر واحد . . يعطينا الله سبحانه وتعالى هذه الصورة . . ويقول لنا :

أليس من الأسهل والأسلم لكم أن تطيعوا إلها واحدا وأن تعبدوا إلها واحدا . . لقد شاءت رحمتى أن تيسر لكم أمر العبادة . . ولكنكم أنتم تريدون أن تخلقوا لأنفسكم آلهة متعددة . . أى أنكم تختارون الطريق الصعب . . غير

الميسور . . غير الحقيقى . . تتعبون به أنفسكم وتلقون بأيديكم إلى التهلكة . . بينما اخترت لكم الطريق السهل الميسور .

وهكذا يقرب الله سبحانه وتعالى لنا الصورة فى صورة مادية محسوسة . . ليظهر لنا غباء هؤلاء الذين يريدون أن يتعبوا أنفسهم ، فيخترعوا لها اختراعا آلهة متعددة . . وعندما تقترب منا الصورة إلى هذه الدرجة . . نحس بتفاهة فكر . . وتفاهة حجج . . أولئك الذين يخترعون آلهة متعددة ليعبدوها . .

وفى سورة الروم يضرب الله مثلا ثانيا :

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾

وهنا يضرب الله سبحانه وتعالى مثلا ثانيا . ويقول جل جلاله أننى سآخذ هذا المثل هذه المرة من أنفسكم حتى تحسوا به احساسا مباشرا . . اننى أرزقكم أموالا وأعطيكم رزقا فى الحياة الدنيا . . فهل تأتون أنتم فى هذه الأموال . . وتشركون فيها أحدا غيركم فيما أعطيتكم من رزق . . إن هذا الرزق ، الله هو الذى وهبه لكم . . هل خرج أحدكم إلى القرية وأحضر عددا من الناس . . وقال لهم تعالوا فعندى رزق ولنشترك فيه . . بحيث نصبح كلنا فيه سواء أى نقسمه على بعضنا البعض . . أم أنكم تخافون على هذا الرزق . . وتحاولون أن تحموه بكل وسيلة . . بل أن كل واحد منكم يخاف أن يأخذ الآخر منه شيئا . . وإذا كان هذا هو مسلككم مع أنفسكم . . ألا يكون هو نفس مسلككم على الأقل مع الله الذى أعطاكم هذا الرزق ومنحكم هذه النعمة . . ولكنكم والله وحده هو

الوهاب . . تأتون بشركاء تشركونهم مع الله فيما رزقكم . . فتقولون هذا رزق الله . . وهذا رزق من فلان . . بل انكم تنذرون النذور لغير الله فيما رزقكم به الله . . فيكون نذركم لمن لم ينزل به الله سلطانا . . ونجد أنواعا غريبة من آلهة وتعاويذ عبر التاريخ وحتى الآن . . يقال إنها لجلب الرزق . . مع أن الله سبحانه وتعالى هو الرزاق والمنعم . . والله بهذا المثل يريد أن يجعل الإنسان حكما على نفسه . . فيقول له لقد وهبت لك رزقا . . فهل أشركت فيه غيرك . . وهل أدخلت فيه شركاء . . أم أنك حاولت ألا تشرك فيه أحدا . . إذن لماذا تريد أن تأتى لله بشركاء . . وتخلع عليهم صفات الألوهية . . إذا كان عقلك قد طاش . . فأنا أحاول أن أعيد لك الحكمة وأن أضرب لك مثلا تحسه فى ذاتك وفى نفسك . . حتى لا تحتاج إلى مجرد عمق التفكير . . بل سيكون هذا المثل ظاهرا بمجرد أن أضربه لك . . ستحسه وتعرفه .

ثم يضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال على أن من يتخذ إلها غير الله . . فقد أورد نفسه مورد التهلكة . . فيقول الله سبحانه وتعالى فى سورة العنكبوت :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (٤١) ﴾

أى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يوجه الإنسان إلى أنه لا أحد يرعاه . . ويعطى له الرزق والحماية إلا الله سبحانه وتعالى . . وأنه إذا ابتعد عن الله . . فأين يذهب . . وإلى من يلتجىء . . ومن الذى يملك له من الله شيئا . . لا أحد . . ولذلك فإن أولئك الذين يحسبون أنهم عندما يلجأون لغير الله يحققون شيئا . . فانهم واهمون . . ذلك لأنهم لم يلجأوا إلى شىء له قوة أو قدرة . . بل لجأوا إلى شىء بلا قدرة .

مَثَلُ التحدى

خيوط العنكبوت

ولكن هذا القول من الله إخبار عن شيء غيبى عنى . . لا ألمسه ماديا . . ولذلك يريد الله أن يثبت الذين آمنوا ويقرب لهم الصورة . . أن يضرب مثلا من حياتهم اليومية مثلا يرونه كل ساعة . . وهو فى كل بيت . . مثل خيوط العنكبوت . . يقول لهم انظروا إلى خيوط العنكبوت هذه . . هل تستطيع أن تحمى أحدا . . أو توفر الحماية حتى للعنكبوت نفسه . . إنها أسهل شيء يسقط . . ويستطيع طفل صغير بأى شيء لين أن يسقط بيت العنكبوت فى ثانية . . لا يحتاج ذلك إلى قوة من الطفل . . ولا إلى الشيء الذى يمسك به ويسقط بيت العنكبوت . . وهو لا يحمى أحدا ولا يحمى صاحبه . . وحتى الحشرات التى تحاول أن تلتجىء إليه وهى تظن أن هذا البيت فيه الحماية وإنما تسقط فى شرك نصب لها . . وتفقد حياتها وهى تظن أنها تحتمى بهذا البيت وتنجو . . أى أن طريق النجاة الذى تصوره لنا عقولنا بعيدا عن الله . . هو طريق الهلاك بالنسبة لنا .

هنا لابد أن نتوقف لحظة . . أمام ما يقال وما يشاع عن هذا المثل . . فبعض الناس يقول أن خيوط العنكبوت فيها صلابة . . أو هى قوية . . على الأقل بالنسبة للحشرات التى تسقط فى بيته . . فهذه الحشرات عندما تسقط وتحيط بها خيوط العنكبوت لا تستطيع أن تتخلص منها . . ذلك لأن الخيط أقوى من قدرة الحشرة . . نقول لهؤلاء جميعا أن القرآن كتاب نزل للإنسان . . وهو يخاطب الناس حسب قدراتهم البشرية . . ومن هنا فإننا لا يجب أن نضع قياسا غير ذلك . . ونحن نريد أن نفهم معانى القرآن . . الوهن هنا هو بالنسبة لقدرة الإنسان وقوة الإنسان . .

الفصل السادس

مثل الحياة الدنيا



الأمثال عن الحياة الدنيا فى القرآن تتناول أكثر من جانب . . وبعض الناس فى
ير من الأحيان يحاول أن يضع للأمثال أسبابا قد لا تكون هى الحقيقة أو الهدف
ها . . مثال ذلك ما أثير حول قول الله سبحانه وتعالى فى سورة المدثر (الآيات
ن ٢٧ - ٣١) .

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا
سْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً
لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا
رْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ
اذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ
جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾

ولقد قيل أشياء كثيرة عن رقم ١٩ الذى هو عدد الملائكة « **عليها تسعة**
شر » . . وحللوها بالعقل الالكترونى . . وخرجوا منها إلى متاهات كثيرة . .
سعة عشر عدد حروف بسم الله الرحمن الرحيم . . والله سبحانه وتعالى يضرب
ذا المثل ويقول :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾

حتى نعرف أنها قضية إيمانية . . وأن المشكلة ليست فى عدد الملائكة . . سواء
انوا عشرة . . أو عشرين . . أو ثلاثين .

وقفة العقل الإيمانية

والسؤال فى العدد هو دائما دائر . . فلو قال الله إن عددهم ثلاثة . . لوجدت من يسأل . . لماذا ثلاثة ؟ وإذا قال إن عددهم أربعة . . لوجدت من يسأل . . أربعة لماذا ؟ أو خمسة لماذا ؟ والسؤال الدائر لا يرد عليه . . فالله قد جعل أصحاب النار ملائكة . . وهذا اختيار الله سبحانه وتعالى . . والله قد جعل عددهم تسعة عشر . . وهذا اختيار الله أيضا . . ومادام أى عدد سيسأل عن سببه . . يجب ألا يرد على السؤال . . لأنه لا يوجد عدد يحسم اختيار الله سبحانه وتعالى .

ولكن الحق أراد بهذا المثل وقفة العقل الإيمانية . . لأنه لو أن كل شيء يخضع للتعليل العقلى . . لما كانت هناك وقفات إيمانية . . ولكانت الدنيا والآخرة . . كل منها . . بكل ما فيها . . له تعليل عقلى . . ولكن أمور الحياة الدنيا التى يحتاجها الإنسان فى معيشته . . هى التى تدخل وتخضع للتعليل العقلى . . وهناك أمور تعبدية . . وغيبية . . لابد أن تخضع للوقفة الإيمانية للعقل . . ولذلك فإن الوقفة الإيمانية تقول إن الله سبحانه وتعالى هو الذى اختارهم تسعة عشر . . وهذه مشيئته . . ولكن الذين فى قلوبهم مرض يسألون لماذا اختار الله تسعة عشر . . ولو أن الله اختار عشرة . . كان نفس السؤال موجودا . . وهو لماذا اختار الله عشرة . . أما المؤمن فإنه يستيقن ويقول إن هذا اختيار الله سبحانه وتعالى .

ولو فتحنا هذا الباب . . ودخلنا إلى التعليل العقلى وحده . . وتركنا الوقفة الإيمانية للعقل . . لوجدنا أمامنا أسئلة كثيرة بلا جواب . . فقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾

سورة الحاقة

مَثَلُ الحياة الدنيا

كان لابد أن يحمل مثل هذا التساؤل .. ولماذا العدد ثمانية .. وليس أكثر
ا أقل .. والله سبحانه وتعالى خلق سبع سموات .. وكان لابد أن نسأل لماذا
لق الله السموات سبعا .. ولم يخلقهن عشرا أو خمس عشرة .. وقول الله
بحانه وتعالى :

فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

في قصة موسى عليه السلام .. كان لابد أن نسأل ما هي الحكمة في أن تكون
بعين ليلة .. ولماذا لا تكون ثلاثين أو عشرين .. وبهذا نفتح الباب أمام أشياء
نعرف لها جوابا .. إلا أنها مشيئة الله فيما فعل .. والله سبحانه وتعالى حين
تار هذه الأعداد .. لم يخترها بحيث يكون بينها قاسم مشترك .. تكون هذه
عف هذه .. أو هذه نصف أو ثلث هذه .. وإلا لكنا قد ذهبنا إلى
ليلات .. ولكن الأعداد سبعة .. وثمانية .. وتسعة عشر .. وأربعين ..
س بينها قاسم مشترك .. ولذلك فالله سبحانه وتعالى قد اختارها لأنها
شيئته .. ويأتي الذين في قلوبهم مرض ليقولوا لماذا اختار الله هذا العدد ..
كن الذين في قلوبهم الإيمان .. يقفون وقفة إيمانية من هذه الأعداد ويعرفون
ها مشيئة الله في اختياره .. وأن أي عدد يضرب به مثل .. إنما يمثل هذه
شيئة .. وتلك وقفة العقل الإيمانية التي تبعدنا عن متاهات لن نصل فيها إلى
قيقة .. ولذلك لا يجب أن نحمل الأمثال والأعداد في القرآن الكريم أكثر مما
تمل .

والله سبحانه وتعالى رحمة بالعقول البشرية قد ضرب لنا مثلا في القرآن الكريم
ول الحياة الدنيا من بدايتها إلى نهايتها .. ونلاحظ في هذا المثل أنه يذكرنا ..
يذكرنا بأن الحياة الدنيا بداية ونهاية .. وأنها ليست مستمرة .. فيقول الله
بحانه وتعالى في سورة الكهف (الآية ٤٥) :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾

ويلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى طلب من رسوله أن يضرب للمؤمنين هذا المثل ليثبت إيمانهم . . ولقد أراد الله أن يضرب هذا المثل ويقول ان الحياة الدنيا لها أول ولها آخر . . لماذا ؟ لأن الذى يدرك أول الحياة الدنيا لا يدرك آخرها . . والذى يقترب من آخرها لا يدرك أولها . . ولذلك فإنه من المستحيل أن يعيش إنسان الدنيا كلها من أولها إلى آخرها . . فكل واحد فينا يعاصر فترة من الحياة الدنيا . . ما قبلها هو غيب عنه . . وما بعدها هو غيب عنه . . ومن هنا فإننا باراكنا المحدود لا نستطيع أن ندرك أن الدنيا لها بداية ولها نهاية . . بل إننا قد نعتقد أنها دائمة لا نهاية لها . . فنحن نولد وهى موجودة ونرحل وهى موجودة .

مثل عن الحياة الدنيا

وحتى لا تغرنا الدنيا . . ونعتقد أنها دائمة . . طلب الله سبحانه وتعالى من رسوله أن يضرب للناس مثلا عن الحياة الدنيا . . يقرب الصورة إلى نفوس الناس بشيء حسى يرونه . . فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾

أى أن هذه الدنيا ليست ذاتية الخلق . . أى لم تخلق نفسها . . أو لم توجد هى . . بل خلقها الله سبحانه وتعالى . . تماما كما يخلق الزرع الذى تنبته . .

مَثَلُ الحياة الدنيا

ولماذا ضرب الله مثل الحياة الدنيا بالزرع . . لأن كل واحد منا يشهد دورة الزرع . . تحدث أمامه فى فترة قصيرة يشهد أولها وآخرها . . ومن هنا فإن المثل أمامه حى ، يعرفه ويراه . . مرة أو عدة مرات كل عام . . فيقول :

﴿ مَثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾

أى أن الله سبحانه وتعالى وهو الذى ينزل الغيث . . هو الذى خلق الحياة على الأرض . . تماما كما ينزل الماء من السماء فينبت الزرع . . « **فاختلط به نبات الأرض** » . . أى أن هذا الماء الذى نزل من السماء قد أخذ من مقومات الأرض استمرارية الحياة . . فقد خلق الله الأرض وأودع فيها أسس استمرارية الحياة للإنسان . . أو العوامل والعناصر التى تكفل استمرار الحياة . . تماما كما ينزل الماء من السماء فيسقى الأرض ويأخذ النبات منها عناصر استمرار الحياة . . ليكبر ويعلو ويترعرع . . ولذلك فإن الأرض قادرة فقط على اعطاء عناصر استمرار الحياة . . ولكن الحياة نفسها بدون ماء تنعدم . . فإذا ذهبنا إلى صحراء جرداء فيها الأرض وليس فيها الماء . . لا نجد فيها حياة .

إذن فأصل الحياة جاء من السماء . . وعوامل استمرارها خلقها الله ووضعها فى الأرض . . والأرض تأخذ زينتها وتعطى من استمرار مد السماء لها بالحياة ، أو مد الله لها بالحياة . . ثم يكبر الزرع وتأخذ الأرض زخرفها ، فينتج منه الثمار والورود . . ويصبح شكله بهيجا يسر الناظرين . . ثم بعد ذلك تأتى نهاية الحياة . . فيصبح هذا الزرع هشيما محطما لا جذور له فى الأرض . . تستطيع الرياح أن تبعثره فى أى مكان . . أى أن جذور الحياة تنتهى . . وتصبح كأن لم تكن . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

لأن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يوجد الحياة . . وقادر على أن يذهبها .

وهكذا ذكر لنا الله سبحانه وتعالى الحياة الدنيا كلها . . فى حدث صغير يتسع له عمر كل فرد فينا . . ويقدر عليه بصر كل فرد . . فهو يركز الحياة الطويلة منذ خلق آدم حتى تقوم الساعة فى حالة موجزة من الممكن أن يشهدها كل فرد منا . . ويقول إن الغيب عنكم وهو هذه الحياة الطويلة من أولها إلى آخرها . . أقربه لكم فى مثل صغير . . انظر إلى الزرع كيف ينبت ثم يصير هشيما . . وأعلم أن هذه الحياة تماما مثل دورة الزرع . . مصيرها إلى فناء وزوال . . فلا تجعلها تغرك عن الله . . ولا تبعدك عن منهجه . . فهى مثل دورة الزرع ستنتهى إلى لا شىء .

ثم يأتى الله سبحانه وتعالى ويضرب مثلا آخر للحياة . . فى سورة يونس :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ السَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

فى هذا المثل الذى يختلف عن المثل الأول . . ضرب الله سبحانه وتعالى مثلا لبداية الدنيا ونهايتها . . ولكنه أعطانا فى هذا المثل شيئا من التفصيل . . لما يمكن أن يحدث بالنسبة لعمر الحياة على الأرض . . ففى المثل الأول . . كان الكلام

مجملا عن البداية والنهاية . . ولكن فى هذا المثل وضع شيئا من التفصيل . . عن كيف تبدأ الدنيا وكيف تنتهى . . فبداية الدنيا كماء نزل من السماء دليل على أن الحياة فى الدنيا مخلوقة وليست ذاتية . . فالماء ينزل من علو . . والحياة تأتى من الأعلى . . وهو الله . . هذه الحياة تستمر بارادة الخالق . . أو باستمرار الوجود من العلو وهو المطر . . وتأخذ عناصر استمراريتها من الأرض . . فتخرج الأرض النبات الذى يأكل منه الناس والأنعام . . ثم يضيف الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ ﴾

وهذه الآية تمثل لنا استمرار موكب الحياة فى الأرض .

فالحضارة التى بدأت مع الإنسان تتقدم معه لتزين الأرض . . وتجعل لها زخرفها . . وهنا لابد أن نتنبه إلى عدة عناصر . .

العنصر الأول أن منشأ الحضارة هو من خلق الله . . وما زاد عليها من اكتشافات هو مما يكشف الله سبحانه وتعالى من علمه للإنسان . . فأنت إذا أخذت نظرية من نظريات الهندسة . . ولتكن نظرية رقم مائة . . نجد أنها اعتمدت على النظرية التى قبلها وهى رقم ٩٩ . . وتلك اعتمدت على النظرية رقم ٩٨ . . والنظرية التى قبلها اعتمدت على النظرية التى قبلها . . وهكذا حتى تصل إلى النظرية رقم واحد . . وتسأل على ماذا اعتمدت ، فتجد أنها اعتمدت على بديهية من بديهيات الكون التى خلقها الله . . أى أن كل هذا العلم أساسه بديهيات الله فى الكون . . فالإنسان لم يخلق شيئا جديدا . . ولم يوجد شيئا لم يكن موجودا . . وإنما طوره بشكل يجعل استخدامه أسرع وأحسن . . ويكشف عن خصائصه التى خلقها الله .

إذا أخذنا مثلا أشعة الليزر واستخدمناها فى الطب وفى قياس المسافات وفى الحروب إلى آخر ما عرفناه .. وما يمكن أن تقدمه هذه الأشعة للإنسانية من استخدامات فى الكون .. والسؤال هنا هو من الذى أوجد أشعة الليزر .. والجواب أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقها .. أى أنها ليست من خلق بشر .. ومن هنا فهى موجودة فى الكون منذ الأزل .. ولكنها لم تدخل فى علم الإنسان إلا خلال هذه الفترة .. فكأن الإنسان .. لم يخلق شيئا .. ولكنه اكتشفه .. أو اكتشف استخداماته .. ولكن هذا الشىء موجود من خلق الله .. منذ خلق الأرض ومن عليها .. وكذلك كل اكتشافات العلم فى الحياة .. إنما هى كشف عن قدرة موجودة .. أو عن خصائص موجودة فى الكون .. لم نكن نتنبه إليها ..

والعلم البشرى فى الكون كله فى آية واحدة من سورة فاطر (الآية ٢٦) . ويقول الله سبحانه وتعالى فيها :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ ﴾

ومن هنا فإن العلم الإنسانى يدور حول الأرض وما فيها وما تنبت .. وحول الجبال وما تحمل من معادن وأسرار .. وحول الناس والدواب والأنعام .. وكلما اكتشف العلم شيئا جديدا .. كان ذلك أدعى للعلماء الذين يكشف لهم الله دقة

صنعه أن يكونوا أكثر الناس خشية لله .. فهم يرون الاعجاز فى كل خلق الله .. وهم بوصولهم إلى هذا الاعجاز .. كان لابد أن تدخل الخشية إلى قلوبهم .. وهم يرون دقة الصنع وإبداع الخالق .

العلم اكتشف فقط

أما الخلق الحقيقى والايجاد الحقيقى لله سبحانه وتعالى مصداقا لقوله فى سورة لقمان:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ (١٠) هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (١١) ﴾

هذا هو الخلق .. ولا يستطيع أن يدعيه أحد إلا الله .. والعلم لم يخلق شيئا .. ولكنه اكتشف خصائص استخدمها الإنسان .. فالإنسان فى الماضى كان يحفر الأرض بقطعة من الخشب .. فجاء العلم وأعطاه المحراث .. مستخدما مواد الله فى الكون .. ثم أعطاه الجرار .. وكل إضافة جديدة تجعل عملية الزرع أسهل .. ولكن أساس الزرع وجد مع الإنسان .. ولا يستطيع أحد أن يدعيه .. بل أن هناك أشجارا فى الغابات الكثيفة .. تقذف بحبوبها بعيدا لتنبت هناك أشجار جديدة .. دون أن يكون للإنسان دخل فى ذلك .

والماء أوجده الله مع الخلق .. ولكن العلم استطاع أن يقلل المتاعب .. بدلا من أن أذهب إلى العين أو إلى النهر لأشرب .. نقل لى الماء باستخدام المواد التى خلقها الله بحيث أصبحت أجد كوب الماء فى المكان الذى أعيش فيه .. والشمس بكل أشعتها وما فيها من أسرار .. هى كما هى منذ بدء الخليقة .. وكل يوم نكتشف أشعة من أشعة الشمس لها فوائد لم نكن نعرفها

فنستخدمها . . وهكذا كلها اكتشافات لخصائص وليس ايجادا لأشياء . . فلا يوجد شيء نأتى به من العدم . . ولكن العقل المخلوق لله يوجهه الله للعمل فى المادة المخلوقة من الله فيكتشف شيئا جديدا . . وحتى الإنسان هو من آدم . . فالسبب فى وجودى هو أبى وأمى . . والسبب فى وجودهما هو جدى وجدتى . . فإذا تتبعنا الخيط نجد أننا نصل إلى أصل البشرية كلها . وهو لابد أن يوجد ذكر وأنثى . . أى أنه لابد من الخلق ليبدأ التكاثر . . وهذا الخلق هو آدم وحواء . . بل ان عدد البشر فى الدنيا أقل . . ومنذ عدة قرون كان أقل جدا . . ونظل نتسلسل إلى أن نصل إلى البداية وهى ذكر وأنثى .

وقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ ﴾

يصور لنا تسلسل الحضارات . . ذلك أنه عند بداية الحضارة . . كان التقدم فى العالم يسير بطيئا . . بحيث لا يتم اكتشاف إلا كل فترة طويلة من الزمن . . ولأن العقل البشرى أعطاه الله القدرة على أن يرث الحضارة الإنسانية . . كل عقل يرث حضارة الجيل الذى قبله . . وهكذا لا يبدأ كل جيل من الصفر . . ولكنه يبدأ ولديه رصيد من الحضارات والاكتشافات يساعده على أن يكون التقدم أكثر وأسرع . . وهكذا كلما مر عصر وجاء عصر جديد كان هناك إضافة ضخمة إلى رصيد الإنسان الحضارى . . تمكنه أن يبدأ من نقطة متقدمة عن الجيل الذى قبله .

ومع استمرار التقدم والزمن يصبح لدى الإنسانية بداية تؤهله لأن يضيف أكثر . . ذلك أنها تبدأ من حيث انتهى الآخرون . . وهكذا نجد مع تقدم الزمن . . بعد أن كان هناك كل ١٠٠ سنة اكتشاف علمى . . يصبح هناك اكتشاف علمى كل عشر سنوات . . ثم كل خمس سنوات . . ثم كل سنة . .

ثم كل شهر . . ثم كل يوم . . ثم عدة اكتشافات فى اليوم الواحد . . كل ذلك لأن الله سبحانه وتعالى ميز الإنسان بعقل يرث الحضارات . . ولم يعط هذا العقل لباقى مخلوقاته . . فالحيوانات مثلا تعيش بنفس الطريقة منذ بداية خلقها . . فهى لم تضف شيئا إلى حياتها . . وليس لها رصيد حضارى أو عقل يرث الحضارات . . وكذلك الجماد والنبات . . إنما الذى يملك عقلا يرث الحضارة ويضيف إليها . . هو الإنسان الذى م الله سبحانه وتعالى وفضله على خلقه .

موكب العلم يتقدم

يمضى موكب العلم ليضيف اكتشافات جديدة إلى حياة الإنسان . . ويزين الأرض . . فكل ما على الأرض هو زينة لها . . كل ما يحدث على الأرض من عمارات شاهقة . . وما يؤسس عليها . . وما يزرع بالزرع المختلف الألوان . . هذه كلها زينة للأرض ، فلا أحد يأخذها معه . . ولا أحد يأخذ شيئا معه . . إلا حسناته أو ذنوبه . . أما كل ما عمله فوق الأرض وما بناه فهو يتركه زينة للأرض نفسها . . يأتى الذين بعده والذين من بعدهم . . فيرونه ويعجبون به . . وقد لا يعرفون من أقامه . . ولكنهم يتمتعون بالزينة التى تملأ الأرض .

حينما يتقدم العلم ويرى الناس ما تحققه لهم الاكتشافات العلمية . . يبدأون فى الاتجاه إلى العلم . . وينسون المعلم . . الذى وضع هذا العلم فى الأرض . . ويسر لنا أن نكتشفه .

ويبدأ الإنسان يغتر بقوته . . ويحس بأنه هو الذى يعمل وهو الذى يضيف . . ويرى أثر العلم فى ظاهر الحياة الدنيا فيتجه إليه .

ولكن العلم الذى قد يعطى الإنسان الكثير لا يستطيع أن يعطيه شيئا واحدا . . مما سيعطيه له الله بقدراته . . فقد يجعلنى العلم أضغط على زر

فيطهى لى الطعام . . أو يأتينى ما أطلب . . ولكنه لا يستطيع مهما تقدم العلم أن يجعلنى أجد الشىء أمامى بمجرد أن يخطر على بالى . . فساعة أفكر فيه ودون أن أعمل شيئا أجده حاضرا أمامى . . وهذا سيحدث فى الآخرة . . وهو أبسط ما سيحدث فيها بالنسبة للمؤمن .

النهـــار والليـــل

ولكن الإنسان يظل يتقدم بالعلم حتى يظن أنه قد سيطر على الأرض تماما . . ويحس أن كل ما يطلبه أو يريده يستطيع أن يحققه . . وأنه قادر على أن يصل إلى كل ما يريد بالنسبة للأرض وما عليها . . حينئذ يصدق فيه قول الله : « وظن أهلها أنهم قادرون عليها » . . وهذا الظن يرجع إلى نسبة الإنسان كل شىء إلى قدراته هو . . ناسيا قدرة الله سبحانه وتعالى الذى يسر له ذلك . . حينئذ . . حين يصل الإنسان إلى هذه الدرجة العالية من الحضارة ، حتى أنه يظن أنه قادر على أن يتحكم فى كل ما على الأرض . . فيجعله يعمل وفقا لهواه أو ارادته تكون نهاية الإنسان وقيام الساعة :

﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾

حينئذ تقوم الساعة ويأتى أمر الله . . ليعرف الإنسان يقينا أنه غير قادر على شىء . . وقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ليلا أو نهارا ﴾

دليل على أن الليل والنهار موجودان على سطح الأرض فى وقت واحد . . . فبعض الناس ستأتيهم الساعة والوقت عندهم نهارا . . لأن الله خلق الليل والنهار معا . . مصداقا لقوله تعالى فى سورة يس :

﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾

وكان العرب يقولون أن الليل يسبق النهار . . ويبدأون يومهم بالليل أولا . . أى بعد غروب الشمس . . وهكذا عندما نزل القرآن . . كانت هناك قضيتان . . قضية النهار يسبق الليل . . وهذه لم يتعرض لها أحد . . ولم يقل بها أحد . . وقضية أن الليل يسبق النهار . . وهذه كانت خطأ يعتقده العرب . . فجاء الله سبحانه وتعالى ليصحح هذا الخطأ فقال :

﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾

. . ومعنى ذلك أن الليل لا يسبق النهار كما تعتقدون . . ومادام الليل لا يسبق النهار . . والنهار لا يسبق الليل . . إذن فقد وجدا على الأرض فى وقت واحد .

﴿ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾

. . بعد أن استعرض الله سبحانه وتعالى كيف أن العلم البشرى والحضارة البشرية سترتقى وتتقدم . . حتى يحسب الإنسان أنه قد سيطر على الأرض تماما . . وأصبحت الأرض خاضعة لمشيئته وارادته . . كل شىء فيها هو يتحكم فيه . . حينئذ تقوم الساعة فيدمر الله الأرض وما عليها . . وتنتهى الحياة من الدنيا . . ويصبح كل الذين ظنوا أنهم قادرون على الأرض أمواتا لا يقدرون على شىء .

على أن هذا الهلاك . . أو هذا الدمار الذى يتم فى الآخرة . . لا يجعل الله سبحانه وتعالى يترك الدنيا بلا عقاب للكافرين حتى تقوم الساعة . . بل إن السماء تتدخل إذا استشرى الظلم . . وعم الفساد . . وكان الكفر هو عقيدة الناس .

مَثَلُ الحياة الدنيا

وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة النحل :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

ونظرة واحدة إلى خريطة العالم . . ترينا كيف أن هذا المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى موجود فى كل بقاع الدنيا . . والأصل فى الخلق . . أن الله خلق الناس . . ويسر لهم رزقهم . . وأعطاهم المنهج الذى لو اتبعوه لعاشوا آمنين مطمئنين . . ولو أن منهج الله طبق فى أى دولة فى العالم . . وفى أعتى الدول اجراما لحولها إلى أكثر الدنيا أمانا . . هذه هى الحقيقة التى لابد أن نعرفها . . والتى نستطيع أن نصل إليها بسهولة . . إذا أحصينا عن جرائم القتل والنهب والسلب فى الدول التى تطبق منهج الله . . فنجدها تكاد تتلاشى .

ماذا يكون العقاب

ماذا يحدث لهذه القرى . . ولماذا تتحول من الأمن إلى الخوف . . ومن الشبع إلى الجوع . . ولماذا فى كل دولة فى العالم حرب . . وقتال . . وقتل . . ولا يوجد هناك أمان . . السبب فى ذلك أن الإنسان كفر بنعمة الله . . وابتعد عن طريقه . . ووضع منهجا لهوى النفس . . وما أن الذين يضعون هذا المنهج هم الأقوياء أو الحكام أو المترفين . . فقد جاءوا بما يحقق لهم أكثر الميزات . . وبما يسلب من غيرهم كل الميزات . . وهكذا أصبح هوى النفس هو الذى يحكم . . ومع هذا الهوى وجد الظلم . . ومع الظلم وجدت الثورات والانقلابات . . ثم المطامع والحروب . . وكل واحد يريد أن يأخذ ما فى يد الآخر . . ولا أحد يأخذ شيئا . . بل كل نعم الدنيا تنتقل من يد إلى يد . . إلى يد .

انظر بعد ذلك ماذا يكون العقاب .. يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

والجوع ألا يجد الإنسان ما يقيم أوده .. أو الطعام الذى يكفيه هو ومن يعول .

والخوف هو ألا يكون آمنا على نفسه أو على من يعولهم .

وكلا العاملين الجوع والخوف هم البلاء فى كل الحروب.فالشعوب فى الحروب تجوع ولا تجد طعاما .

وكما شهدنا فى الحرب العالمية مثلا .. كان نصيب الفرد فى بريطانيا بيضة واحدة فى الأسبوع .

أما فى الأماكن التى دارت فيها الحروب .. فلم يكن الإنسان يستطيع الحصول على بيضة .. أو قطعة من السكر .. أو رغيف من الخبز .. مع أن عندهم الأرض التى تنتج ما يحتاجون ويزيد .

والحرب تقضى على الخير .. وتذيق الناس لباس الجوع .. ثم ينتشر الخوف .. الخوف من الموت .. الخوف من الرصاص الطائش الخوف من العدوان .. فلا أحد يحمى أحدا .. المهم فى ذلك كله .. أننا إذا نظرنا إلى العالم اليوم .. نجد فى أكثر من بقعة منه ناسا تذوق لباس الجوع والخوف .

ونجد معظم الناس حتى فى الدول التى ليس فيها حروب خائفين .. ربما سلط الله عليهم أنفسهم .. فامتلأت الدولة بالعصابات التى تسرق وتقتل ..

وربما سلط الله عليهم غيرهم فغزا أرضهم .. وربما نشأت البغضاء والضغينة بينهم وبين بعض فقامت الحروب .. وكما قلت فإنه يكفى نظرة واحدة إلى أحوال العالم المضطرب الذى نعيش فيه .. من أغنى الدول حتى أفقرها .. لنعرف رضا الله على خلقه .. ولنرى غضب الله على خلقه .

على أن عدل الله .. كما اقتضى ألا يأخذ كافرا أو مذنبا أو عاصيا ويترك كافرا آخر .. كذلك فإن هذا العدل اقتضى ألا يتحمل مؤمن وزر ومعصية كافر .. وأن تكون كل نفس مسئولة عما تفعل .. ولا تحاسب عما يفعله غيرها .. ولقد ضرب الله سبحانه وتعالى أكثر من مثل لذلك فى القرآن الكريم .. وكانت الأمثال بأقرب الناس إلى الله سبحانه وتعالى .. وهم الأنبياء .. فكان أبو إبراهيم كافرا رفض أن يؤمن .. وكان ابن نوح كافرا رفض أن يؤمن .. ورفض أن يركب مع أبيه السفينة .. قال :

﴿ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة النور)

وكانت امرأة لوط وامرأة نوح غير مؤمنتين .. خانتا زوجيهما .. فلم يغنيا عنهما من الله شيئا .. وكانت امرأة فرعون مؤمنة .. فلم يصبها كفر زوجها بأذى .. وبنى الله لها قصرا فى الجنة .

وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى سورة التحريم :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا

فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

ويلاحظ هنا فى القرآن الكريم . . أن الله سبحانه وتعالى لم يقل على لسان امرأة فرعون ونجنى من زوجى . . لأنه فى هذه الحالة مادام كافرا وهى مؤمنة . . فلا زواج بينهما . . بل إن صلة النسب تختفى . . فنوح عندما قال لله بعد أن وعده بأنه سينجيه وأهله من الغرق :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة هود)

فهذا يدل على أنه فضلا عن أن أهل أى نبى هم المتبعون لمنهجه . . فإن إنسان لا يحاسب عن وزير يرتكبه إنسان آخر . . وهكذا نجد ان امرأة فرعون . . رغم أن زوجها وكل المحيطين بها كانوا كفارا . . فإنها حينما توجهت بالدعاء إلى الله أن يبنى لها قصرا فى الجنة وينجيها من فرعون وعمله . . لم يتقبله منها فقط . . بل ضرب بها مثلا فى القرآن الكريم حتى لا تأتى امرأة يوم القيامة . . فتقول ان زوجى كان كافرا فاتبعته . . أو يأتى رجل يوم القيامة فيقول أن زوجتى كانت كافرة فأغوتنى . . أو يأتى أى إنسان فيقول إن أباه أو عمه قد أغواه . . نقول لهؤلاء جميعا ان عدل الله سبحانه وتعالى شاء « ألاّ تزر وازرة وزر أخرى » . . ومن هنا فإنك إن ابتعدت عنهم ولم تشترك معهم فى الكفر وآمنت بالله فلن يضرك كفرهم شيئا . . وإذا اتبعتهم على أن يحملوا أوزارك يوم القيامة . . لا يحملون منها شيئا . . وستحمل أنت هذا الوزر .

ولا تعتقد أن الذى يحمل منهجا ولا يعمل به هو فى حماية من العذاب . . بل حمل المنهج أساسه العمل به . . تلك هى القاعدة التى يريدها الله سبحانه وتعالى لعباده . . ومن هنا فقد ضرب المثل للذين يحملون منهج الله ولا يعملون به . . فقال فى سورة الجمعة :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾

. . أى أنه شبه الذين لا يعملون بالمنهج مع أنهم يعرفونه . . كمثل الحمار الذى يحمل مجموعة من كتب الحكمة والعلم . . هل يستفيد منها شيئا ؟ طبعا لا يستفيد . . مع أن الناس حين يعرفون أن إنسانا يحمل منهجا فهم يتبعونه أو يطيعونه . يقول لهم الله سبحانه وتعالى . . لا تغتروا بمن يحمل المنهج ولا يعمل به . . ولا يغركم أنه يحمله . . ويتساءل الناس كيف ذلك ؟ فيعطيهم الله الصورة التى تقرب مثل هذا الإنسان إلى عقولهم بصورة محسوسة يرونها أمامهم كل يوم . . فيقول لهم ان هذا الشخص مثل الحمار الذى يحمل كتبا فيها قيم وعلم وحكمة . . هل يستفيد منها شيئا ؟ مهما كان يحمل من كنوز . . هؤلاء تماما كهذا الحمار . . قد يحملون علم الدنيا كله . . ولكنهم لا يعرفون شيئا . . ولا يستفيدون شيئا . . وذلك أيضا مثل الذين كفروا بآيات الله .

على أن الله ضرب فى القرآن الكريم أمثالا للعمل الطيب والعمل السيىء . . والكلمة الطيبة والكلمة السيئة . . والحق والباطل . . وضرب مثلا لعيسى عليه السلام فقال:«إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم . . خلقه من تراب ثم قال له كن » . . وهذه الأمثال هى موضوع كتابنا القادم إن شاء الله . . والله ييسر لنا السبيل . . ويهدينا إلى صراط مستقيم .

محتويات الكتاب

رقم الايداع ٣٣٢٧ / ٩٣
I. S. B. N
977 – 08 – 0180 – 1